

روايات جائزة نوبل

1

الخبز

أندريه جيد

محمود قاسم

ترجمة

الدار المصرية اللبنانية

84



1

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحى العشرى

الإعداد والصياغة : محمد فتحى

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٩٤ / ٢٧٤٥

الترقيم الدولى : 6 - 128 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م



أندرية جيد

نوبل / 1947

محمود قاسم

ترجمة

إلى السيد / د . ر

رئيس المجلس

« سيدى ب . م . ٣٠ من يوليو عام ١٨٩٠ »

نعم ، أنت تذكره جيداً ، فكم حدثنا عنه أخونا العزيز ، إنه ميشيل . ها هو ذا النص الذى كتبته لنا ، لقد طلبته ، ووعدتك بذلك ، لكننى ترددت كثيراً لحظة إرساله ، وعندما أعدت قراءته بدا لى مخيفاً . آه ! ماذا ستعتقد فى صديقنا ؟ ثم كيف أراه أنا بدورى ؟ فلنقل بكل بساطة : إننا يمكن أن نعرف كفاءات تبدو بالغة العمق ، مما يعطينا مساحة للانتظار ، وهذا ما أخشاه ، فمن منا لا يستطيع أن يتعرف فى هذا النص على نفسه ؟ هل يمكن أن نجد وظيفة لشخص يملك الكثير من الذكاء والقوة ، أو نابى عليه كل هذه الحقوق المدنية التى يستحقها ؟

ترى فى أى مجال يمكن لميشيل أن يخدم بلده ؟ أعترف أننى لا أعرف الإجابة ... يلزمه أن يشغل المكانة العليا التى تشغلونها ، السلطة التى تمسك بها . هل سيسمحون له أن يحصل عليها إذن ؟ . أسرع ، فميشيل مُمتن ، وهو هكذا دائماً ، وسوف يكون قريباً أكثر من ذلك .

أكتب لك من تحت سماء صافية ، نحن هنا منذ اثنى عشر يوماً . أنا ،

ودانييل ، ودنيس ، لا سحب ولا حجب للشمس . ويؤكد ميشيل أن السماء نقية منذ شهرين .

لست حزيناً ، ولا مبهجاً ، فالجو هنا يملؤك بقدسية بالغة العمق ، ويجعلك تعرف شيئاً يبدو لك بعيداً عن البهجة أكثر من الألم ، وربما أكثر من السعادة .

نحن على مقربة من ميشيل ، ولا نود أن نتركه ، سوف تفهم السبب إذاً ، وددت أن أقرأ لك هذه الصفحات ، فنحن هنا في دارك ، وننتظر إجابتك ، وأرجو ألا تتأخر في الرد عليها .

أنت تعرف أى صداقة جامعية قوية ربطتنا ، كانت تكبر في كل عام ، وتربط ميشيل بدنيس وبى ، فبيننا نحن الأربعة نوع من التعاقد الضمنى ، أو على الأقل إذا نادى أحدهنا فعلى الثلاثة الآخرين أن يلبوه . وعندما جاءتنى هذه الصيحة التحذيرية الغامضة من ميشيل ، سرعان ما أخبرت دانييل ودنيس . وعلى الفور رحلنا نحن الثلاثة .

لم تر ميشيل منذ ثلاث سنوات ، لقد تزوج ، ورافق امرأته في رحلة ، وعند مروره الأخير على باريس كان دنيس فى اليونان ، ودانييل فى روسيا ، أما أنا فقد كنت - كما تعرف - قريباً من أبينا المريض ، ومع ذلك لم تنقطع عنا أخباره الجديدة ، فقد وردت أنباء عن « سيللا » و « ويل » اللذين رأياه ثانية . لم تدهشنا هذه الأخبار . فقد كان هناك تَغْيُيرٌ فى داخله ، ولم نستطع أن نفسر سبب ذلك . لم يكن ذلك هو الصفاء البالغ الوضوح الذى كان يتسم به منذ عهد قريب ، ولا حركاته الحمقاء التى كان يفعلها ، ولا

نظراته البالغة الوضوح التى تنتابنا دائماً الرغبة أمامها فى أن نتوقف . لقد كان ... ولكن لماذا أحدثك إذن عن شىء سيقوله لك هذا النص .

أرسل إليك هذا النص ، عمّا سمعه كُّل من دنيس ودانييل وأنا ، لقد كتبه ميشيل فى شرفته ، حيث كنا نتمدد على مقربة منه فى الظل ، أو فى ضوء النجوم ، وفى نهاية النص رأينا ضوء النهار يشرق على الوادى ويعطو منزل ميشيل ، وأيضاً القرية التى لم تكن تبعد عنا كثيراً . كان هذا الوادى أشبه بالصحراء ، فدرجة حرارته عالية ، وهو كثيف العشب .

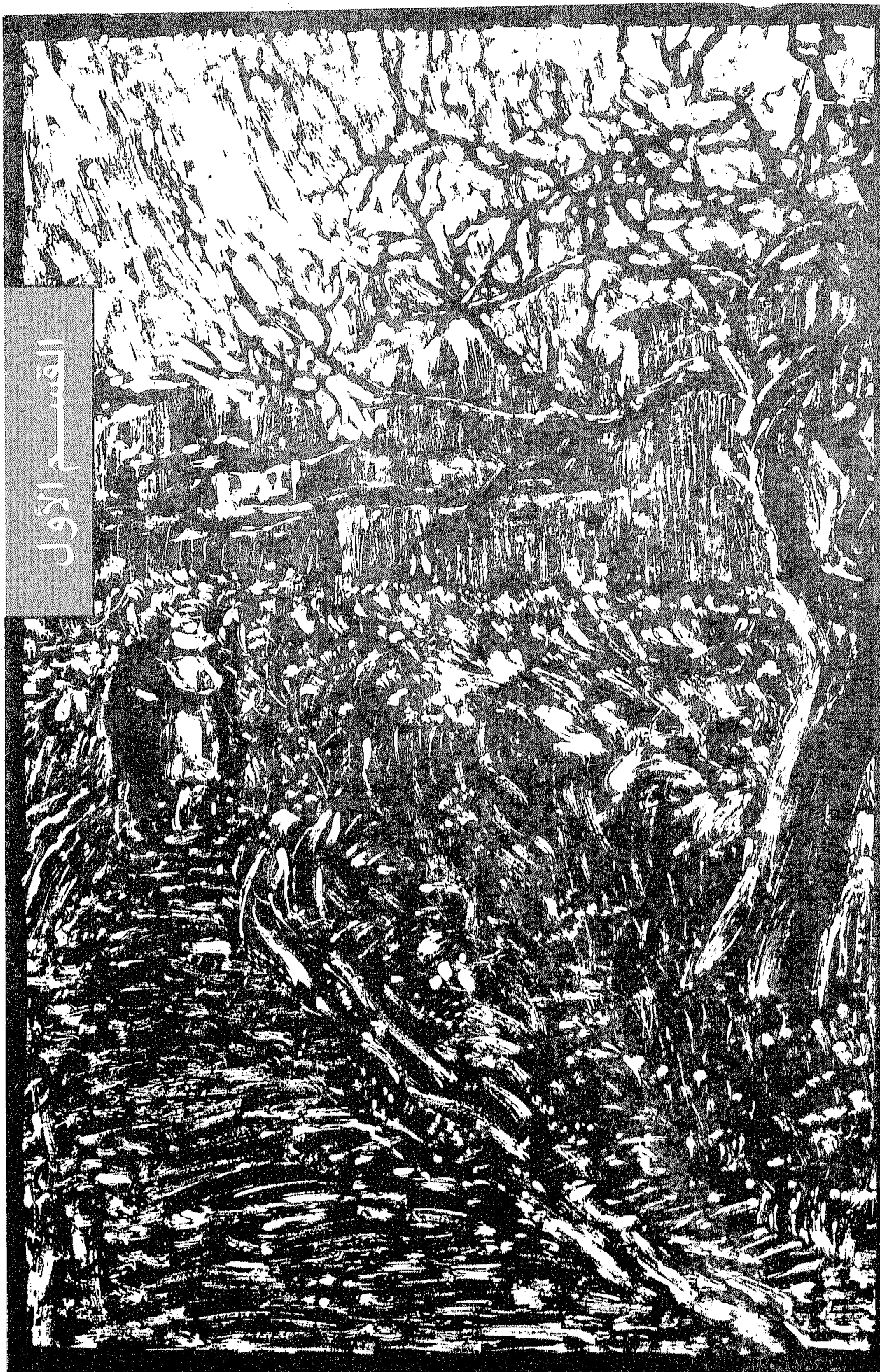
وبرغم أن منزل ميشيل كان فقيراً وغريباً ، فإنه كان ساحراً ، وفيه يعانى الناس من البرد شتاءً ؛ لأنه لم يكن هناك زجاج فى النوافذ ، أو بالأحرى نوافذ ، ولكن كانت هناك فتحات فى الجدران ؛ لذا كم كان جميلاً أن ننام فى الخارج فوق المفارش .

أقول لك أيضاً إننا قضينا رحلة ممتعة ، وصلنا إلى هنا ذات مساء وقد أنهكنا الحر . واستبد بنا السكر من جديد ، لقد توقفنا قليلاً فى الجزائر ، ثم القسطنطينية ، ومن القسطنطينية ركبنا قطاراً توجه بنا إلى « سيدى ب . م » . حيث كانت تنتظرنا عربة « حنطور » . كان الطريق مليئاً بالقرى ، بعضها معلق فى قمة صخرية مثل بعض بلدان « عنبرى » : صعدنا إليها على أقدامنا ، ووضعنا متاعنا فوق بغلتين ، وعندما سلكننا هذا الدرب كان منزل ميشيل أول بيت فى القرية . له حديقة تحوطها الجدران الواطئة ، أو بالأحرى تحوطها أرض مسورة تقطعها ثلاث أشجار رُمان وشجرة « دنيية » . كان هناك طفل قبلى أسرع بالفرار بمجرد أن رأنا نقرب ، وقفز عبر السور .

استقبلنا ميشيل بدون أن تبدو عليه البهجة ، وسرعان ما أعد العشاء في قاعة أدهشنا ديورها الرائع ، لعل هذا سيفسر لك نص ميشيل ، ثم قدم لنا القهوة التي أعدت بعناية شديدة ، ثم خرجنا إلى الشرفة حيث تمتد الرؤية إلى ما لا نهاية ، وشرعنا ثلاثتنا كأصدقاء قدامى نتغزل في التل، وسرعان ما حل الليل .

وما إن حل الليل حتى قال ميشيل :

القبس الأول



الأعزاء ، أعرفكم أوفياء ، وعندما أنادى تلبون جميعكم ، مثلما أفعل معكم ، وبرغم أنكم لم تروني منذ ثلاث سنوات ، فإن

صداقتكم ظلت تقاوم هذا الغياب الطويل ، وتقاوم أيضاً هذا النص الذى أريد أن أسطره لكم ؛ لأننى حين استدعيتكم فجأة وسافرتم حتى مسكنى البعيد فذلك لأننى أريد رؤيتكم ، وكى يمكنكم سماعى لا أبغى سوى أن أتكلّم إليكم ؛ لأننى وصلتُ إلى نقطة من حياتى لا يمكننى أن أتجاوزها ، رغم أن هذا ليس مثيراً للملل ، ولكننى لم أعد أفهم المزيد ، كم أنا فى حاجة لأن أتكلّم إليكم ، وأتحدث معكم ، وأعرف أن التحرر ليس شيئاً منشوداً ، وأن من القسوة على المرء أن يعرف أنه حر ، أنتم تعانون لأننى أتكلّم عن نفسى ، سوف أقص عليكم قصة حياتى ، بكل وضوح ، وبتواضع ، وبلا مكابرة ، وبمنتهى البساطة سوف أتكلّم عن نفسى ، فاستمعوا إلىّ:

فى المرة الأخيرة التى رأى فيها بعضنا البعض ، كان ذلك على ما أذكر فى ضاحية « انجر » ، فى كنيسة ريفية صغيرة . حيث أقيم حفل زفانى ، كان عدد المدعوين قليلاً ، وقد جعل تميّز الأصدقاء فى هذه الليلة الحفل مؤثراً ، بدا لى أنهم قد أصابهم التأثر، وقد هزنى هذا كثيراً ، ففى منزل الفتاة التى أصبحت زوجتى أقيم حفل عشاء بسيط ، خالٍ من الضحكات

والصباحات . لقد جمعكم هذا العشاء بعد الخروج من الكنيسة ، ثم أقلتنا السيارة التى طلبناها ، وحسب الفكرة التى تعتمل فى أرواحنا فإن السيارة كانت بمثابة رصيف للرحيل .

كنت أعرف القليل عن زوجتى ، وفكرت ، بدون معاناة طويلة ، أنها لم تعرفنى جيداً ، لقد تزوجتها عن غير حب ، وذلك بدافع مجاملة أبى ، الذى كم خاف أن يموت ويتركنى وحيداً . كنت أحب أبى كثيراً ، وكنتُ مهموماً بمعاناته . وفكرت - وهو فى لحظات أحزانه - أن أجعل نهايته أكثر رقة ، وأن أربط حياتى بالفتاة دون أن أعرف ماذا تكون الحياة ، وتمت خطبتنا فوق فراش أبى بلا أى فرصة ، وأيضاً بلا أى بهجة ظاهرة ؛ لأن السلام الذى كان أبى يبحث عنه بدا حباً ، وإذا لم أكن قد أحببت خطيبتى - كما قلت - إلا قليلاً فإننى لم أكن أحب امرأة أخرى ، وكان هذا يكفى فى ناظرى أن أجد سعادتنا . وألاً أعلم شيئاً عن نفسى ، اعتقدتُ أننى منحتها أشياء كثيرة ، فقد كانت يتيمة مثلى وتعيش مع أخويها . كانت تسمى مارسلين ، وتكاد تبلغ العشرين من العمر ، أما أنا فأزيد عليها أربع سنوات .

قلت إننى لم أحبها قط ، على الأقل لم أمثل لها شيئاً مما يُسمى حباً ، ولكننى أحببتها بما يمكن تسميته حناناً وشفقة ، وأيضاً من الاحترام المتناهى ، كانت كاثوليكية ، أما أنا فبروتستانتى ، وأقل إيماناً ! وافق القس على ، ووافقت على القس ، وتم هذا بدون أى أحداث غير عادية .

كان أبى - كما يقال - عقلانياً ، أو كما أعتقد ، ليست لديه أفكار عن الفضيلة التى كنت أتصور أنه يمتلكها ؛ لذا لم أناقشه قط فى مسألة عقلانيته . أما الأشياء التى تعلمتها من أمى ، فقد نُحيت ، مع وجهها

الجميل ، ببطء عبر الزمن ، أنتم تعرفون أنني فقدتها وأنا صغير السن ، ولم أشك قط في هذه الأفكار التي سيطرت على طفولتي ، ولم يعلق بذهني شيء عن فكرها ، فهذا النوع من الزهد الذي تركته لي أمي قد أسفر عن ترسيخ المبادئ ، وقد حملتها معي كلها أثناء الدراسة ، فقدت أمي وأنا في الخامسة عشرة من عمري ، وانشغل بي أبي ، وأحاطني ، ولفني بمشاعره ، واهتم بتعليمي ، كنت أعرف أنّ ذاك اللاتينية واليونانية ، وتعلمت معه العبرية بسرعة ، والسنسكريتية ، وأخيراً الفارسية والعربية . وعندما بلغت العشرين كنت شديد الحماس ، لدرجة أنه أشركني في أعماله ، وراح يتصرف كأنه نذّي ، وأراد أن يختبرني بشأن دراسة في عبادات الفريجان التي نشرت حاملة اسمه ، لم يكن هناك شيء يمكن أن يوفيه تقريظاً . كان ممتناً ، أما بالنسبة لي فقد كنت مشوقاً لرؤية نجاح هذا التزييف ، ولكن منذ تلك اللحظة لم أعبأ بهذا الأمر ، فالعلماء الأكثر علماً قد عاملوني على أنني زميل لهم ، وهأنذا أبتسم الآن من كل الشرف الذي نلته . . . وهكذا بلغت الخامسة والعشرين ، ولم أكن أنظر إلا إلى أطلال أو الكتب القديمة ، لا أعرف شيئاً آخر عن الحياة ، وأقوم بعمل بحمية خاصة ، أحببت أصدقائي (وأنتم منهم) . وكنت أكن لهم مشاعر الصداقة الحقيقية ، فقد كان إخلاصي لهم كبيراً ، وذلك بدافع الأخلاق النبيلة ، وعلقت في داخلي كل إحساس جميل ، وبرغم كل ذلك ، فقد كنت أجهل أصدقائي ، مثلما أجهل نفسي ، ولم تخطر على بالي ، للحظة ، فكرة أنني أستطيع أن أحيأ حياة مختلفة ، ولا أن أعيش بطريقة أخرى .

كان لدى أبي ، ولديّ أشياء قليلة تكفيها ، فقد أسرف كلانا قليلاً ،

وبلغت الخامسة والعشرين بدون أن أعرف أننا أثرياء ، وكم تخيلت - بدون أن أفكر دوماً - أننا نملك فقط ما يكفينا للمعيشة ، لقد اعتدت وأنا على مقربة من أبي على التدبير . وما لبثت أن فهمت أننا نملك الكثير جداً ، كنت إلى هذا الحد أجهل الأشياء ، ولم يحدث هذا إلا بعد وفاة أبي الذي كنت وريثه الوحيد ، وأصبحت أكثر وعياً لِنَزَوَاتِي ، وخاصة عندما وقعت عقد زواجي ، وأدركت أن مارسيلين لن تجلب لي شيئاً .

هناك شيء آخر مهم للغاية كنت أجهله ، هو أنني كنت في حالة صحية حساسة ، وكيف لي أن أعرف ذلك ، خاصة أنني لم أختبر في ذلك ؟ كان الروماتيزم يصيبني من وقت لآخر ، وأهملت في علاج نفسي منه ، فالحياة الهادئة التي كنت أحيها أحياناً أصابتنى بالضعف العام ، كما بدت لي - أحياناً - قوية ، وهذا ما كان يجب أن أعرفه .

قضينا ليلة عرسنا في شقتي الباريسية ، حيث أعددنا سريرين ، لم نبق في باريس سوى الوقت الذي كان يلزمنا فيه أن نشترى بعض أشياء ، ثم اتجهنا إلى مارسيليا ، ومن هناك أبحرنا إلى تونس .

ثم انتهت الأحداث الأخيرة بسرعة ، وحلت مشاعر حفل الزفاف بعد فترة العزاء الحقيقية ، ولم أحس بما عانيت به ، إلا فوق المركب ، حيث استطعت أن أحس بتعبى ، خاصة في كل عمل ، وحينما كنت أتسلى . كان وقت الفراغ الذي أقضيه فوق سطح المركب يتيح لي فرصة التفكير ، وبدالى كأن هذا يحدث لأول مرة .

وللمرة الأولى أيضاً وافقت أن أتخلص من عملي لفترة طويلة ، لم أكن مرتبطاً آن ذاك إلا بإجازات قصيرة . رحلة إلى إسبانيا مع أبي - بعد وفاة أبي

بقليل - لم تستغرق أكثر من شهر ، ورحلة أخرى إلى ألمانيا لسته أسابيع ،
ورحلات أخرى ، كانت كلها رحلات دراسية . لم يكن أبى يتسلى قط أثناء
أبحاثه البالغة التعقيد ، أما أنا ففي الوقت الذى لا أتبعه كنت أقرأ . ومع
ذلك فبمجرد أن غادرنا مارسيليا هلت على ذكريات عن غرناطة ، ومن
وسط ظلال أكثر وضوحاً ، وأعياد ، وضحكات ، وغناء ، ورحلت أفكر :
تُرى هل هذا هو ما سوف ألقاه ؟ صعدت فوق مقدمة السفينة رحت أتطلع
إلى مارسيليا وهى تبتعد .

فجأة ، أحسست أننى أهملت « مارسيلين » قليلاً .

كانت جالسة فى المقدمة ، اقتربت منها ، ولأول مرة نظرت إليها حقيقة .

كانت مارسيلين جميلة كما تعرفون ، وقد رأيتموها ، لاحظت أننى لم أرقبها
من قبل مع أنى أعرفها تماماً ، هأنذا أراها من جديد ، فقد ارتبطت أسرتانا
معاً فترة طويلة ، ورأيتها تكبر ، وتعودت على لطفها ، ولأول مرة
اندهشت ، فهذه اللطيفة قد أصبحت بالغة .

تركت خماراً طويلاً ينسل تحت قبعة بسيطة من القش الأسود . كانت
شقراء ، ولكنها لا تبدو رقيقة ، بدت تنورتها ومشدها وكأنهما مصنوعان من
شال اسكتلندى اخترناه معاً . لم أود أن تنغمس معى فى أحزان عزائى .

أحست أننى أنظر إليها ، استدارت نحوى ، لم أكن قريباً منها حتى
تلك اللحظة إلا فى النزر اليسير . وبدلاً من الحب تملكتنى مشاعر باردة وأنا
أراها وددت إن أزعجها قليلاً ، هل أحست مارسيلين فى هذه اللحظة أننى
أنظر إليها لأول مرة بطريقة مختلفة ؟ بدورها دقت فى ، ثم ابتسمت لى برقة
بدون أن تتكلم ، جلست على مقربة منها ، لقد عشت حياتى من أجل ،

أو على الأقل حتى تلك اللحظة ، فقد تزوجت دون أن أتخيل زوجتى شيئاً
آخر غير أن تكون صديقة ، أو أفكر أن ارتباطنا يمكن أن يغير حياتى ،
وفهمت لتوى أن هذا ليس سوى حديث داخلى مع نفسى :

كنا وحدنا فوق سطح السفينة . مالت بجبهتها نحوى ، وجذبته برقة
إلى . رفعت عينيها ، وقبلت أهدابها ، وأحسست فجأة ، على إثر قبلى
بنوع من الشفقة ، غمرتنى بشدة لدرجة جعلتنى لا أسيطر على دموعى .

سألتنى مارسلين : ماذا بك ؟

بدأنا فى الكلام ، سحرتنى جملها الساحرة ، تصرفت على قدر
استطاعتى ، وتكلمت عن بعض الأفكار حول حماقات النساء ، وقد
أحسست فى تلك الأمسية أننى أنا الساذج والأحمق .

إنها الوحيدة التى ربطت حياتها الخاصة بحياتى الحقيقية ! أيقظتنى هذه
الفكرة مرات عديدة فى هذه الليلة ، ولمرات كثيرة تمددت فوق فراشى لأرى
السريـر الآخر ، الأكثر انخفاضاً ، الذى تنام عليه زوجتى مارسلين .

فى اليوم التالى ، بدت السماء رائعة ، وبدأ البحر هادئاً على مقربة منا ،
وقاربت ما بيننا بعض الأحاديث السريعة ، وبدأ الزواج الحقيقى . وأبحرنا
فى صباح اليوم الأخير من أكتوبر إلى تونس .

كان فى نيتى أن أبقى هناك بضعة أيام ، ويهمنى أن أبوح لكم ببعض
غبائى ، فلم يجذبنى فى هذا البلد الجديد سوى « قرطاج » وبعض الأطلال
الرومانية ، مثل « تيمجاد » التى حدثنا عنها أوكتاف ، وفن الموزاييك فى
مدينة سوسة ، وخاصة مسرح « الجُـم » الدائرى ، الذى ظللت أجرى فيه

لتوى . كان يجب أن أصل إلى سوسة ، ثم أقلتنا سيارة البريد من سوسة .
كنت أود ألا يشغلنى شىء هناك .

وبرغم هذا فإن « تونس » فاجأتنى بشدة ، ولمست فى أحاسيس جديدة
حركت مشاعرى . أشياء كانت نائمة لم يسبق لى أن مارستها ، وحفظت فى
داخلى كل أسرارها الشابّة . كنت أكثر دهشة كشخص يبحث عن التسلية ،
وما أثار إعجابى حقاً هو فرحة مارسيلين .

فى صباح كل يوم كان المرض يشتد علىّ ، ووجدت أنه من العار أن أمثل
له . رحت أسعل ، وأحس بتعب غريب فى صدرى ، فاتجهنا جنوباً ،
معتقداً أن الحرارة قد تساعد على شفائى .

تركت عربة المسافرين المتجهة إلى « صفاقس » مدينة « سوسة » فى
الساعة الثامنة مساء . ووصلت منطقة « الجم » فى الواحدة صباحاً ،
واحتفظنا بنفس أماكننا ، توقعنا أن أجد عربة مناسبة ، لكن على
العكس ، كنا غير مستريحين فى إقامتنا ، إنه البرد ! فارتدى كل منا الملابس
الخفيفة ، شالاً واحداً . وما إن خرجنا من سوسة ، ومن بطن وديانها ، حتى
بدأت الريح تهب . وراحت تعصف فوق الهضبة ، وتصرخ ، وتصفر ،
وتدخل من كل فتحة فى البوابة ، لا شىء يمكن أن يمنعها . كنا قد
وصلنا ، خاصة أنا ، إلى أقصى حالات الإنهاك من خلال هزات العجل .
ومن السعال المرعب الذى راح يهزنى بقوة شديدة . يا لها من ليلة ! وعندما
وصلنا إلى « الجم » لم نجد أى فندق . بل كان هناك نزل مرعب . ماذا
نفعل ؟ استأنفت العربة الرحيل . وبدأت المدينة نائمة فى وسط الليل
الدّامس حيث تبدو الأطلال أشبه بهياكل ضخمة ، والكلاب تعوى .

اتجهنا إلى نزل لم يكن به سوى سريرين . راحت مارسيلين ترتعد من البرد ، لكن ، على الأقل ، كنا قد أصبحنا بعيدين كثيراً عن الريح .

بدا النهار في اليوم التالي نديًا ، فقد فوجئنا - أثناء خروجنا - برؤية السماء وقد تلبدت بالسحب ، وراحت الريح تهب ، ولكنها كانت أخف من البارحة . لم تكن العربة تقلع إلا في المساء . . كان يوماً مرعباً كما أخبرتكم . بدا لي المسرح الدائري قبيحاً أسفل هذه السماء الغاضبة . ربما ساعدها تعبى في أن تزيد من حدة تبرمى ؛ ولذا عدت في منتصف النهار وأنا أدقق في كل دقائق الحجارة . كانت مارسيلين تقرأ كتاباً إنجليزياً يمنحها بعض السعادة بعيداً عن صرير الريح . جلست على مقربة منها ، وقلت :

- يا له من يوم حزين ! ألا تشعرين بالتبرم ؟

- لا . كما ترى فإننى أقرأ .

- ماذا جئنا نفعل هنا ؟ على الأقل فأنت تحسين البرد .

- ليس كثيراً . وأنت ؟ فعلاً ! أنت تبدو شاحباً .

- لا

وفي الليل ، استعادت الريح قوتها . . ووصلت العربة أخيراً ، ورحلنا .

ما إن بدأت العجلات في الاهتزاز ، حتى أحسست أننى أتخطم . ونامت مارسيلين ، من شدة التعب على كتفى ؛ لكن سعالى أيقظها ، على ما أعتقد ، وبكل رقة ، أسندتها على جدار العربة ، وجاهدت ألا أسعل . لا . فقد بدأت أتقيأ . ومن جديد فعلت ذلك دون أى جهد ، وعلى فترات منتظمة . كان إحساساً بالغ الغرابة ، رحت أعتاد عليه في أول الأمر ، لكنه راح يبعث في الغم ، خامرنى إحساس مجهول أنه يتركز في فمى . وأصبح

منديلي غير صالح للاستعمال ، فملأت راحة يدي . ترى هل أوقف
مارسلين ؟ . . لحسن الحظ فقد تذكرت الوشاح الكبير الذي تلفه حول
حزامها . فسحبته برقة . وبدأت التقيؤات التي لم أستطع مقاومتها تتدافع
بغزارة ، وتخفضت منها بغرابة . إنها نهاية « الإنفلونزا » على ما أعتقد . وفجأة
أحسست نفسي خائر القوى ، وبدأ كل شيء يدور حولي ، اعتقدت أن
شراً سوف يلم بي ، ترى هل سوف أوقظها ؟ . . . آه . . . ! تماسكت
بطفولتي البريئة ، بكل ما أكن من كراهية للضعف الإنساني ، وأنا أتصور
أنني فوق بحر من حديد ، وأن صوت عجالات العربة قد أصبح كصخب
الأمواج . . وتوقفت عن التقيؤ ، ثم غرقت في نوم عميق .

وعندما خرجت منه كان الفجر قد ملأ السماء ، أما مارسلين فكانت لا
تزال نائمة . تلامسنا . كان الوشاح الذي أمسكه شفافاً ، من النوع الذي
لا يظهر فيه شيء ، ولكن عندما أخرجت منديلي فوجئت أنه مملوء بالدم .

كان أول ما تبادر إلى ذهني هو إخفاء الدم عن مارسلين . . . ولكن
كيف ؟ بذلت كل ما بوسعي لكي أخفيه ، وخاصة في يدي ، كأني نزفت
من أنفي ، لو سألتني فسوف أقول لها إنني نزفت من أنفي .

ظلت مارسلين نائمة حتى وصلنا ، كان عليها أن تنزل أولاً ، ولم تلحظ
شيئاً ، وجدنا غرفتين محجوزتين لنا . ألقيت نفسي في حجرتي ،
واغتسلت ، وأخفيت الدماء ، ولم تر مارسلين شيئاً .

ومع هذا أحسست أنني بالغ الوهن ، وطلبت شاياً لاثنين ، وبينما كانت
تعدده بدت هادئة ، وشاحبة بعض الشيء ، إلا أنها لم تفقد ابتسامتها ،
انتابني إحساس بالضيق لأنها لم تلحظ شيئاً ، أحسست أنني ظالم ، وقلت

لنفسى : حقًا ، إنها لم تر شيئاً مما أخفيته عنها ، لا يهم ، لكن الأمر
تضاعف فى داخلى بشكل غريزى . . وفى النهاية اشتد الأمر على ، ولم
أتماسك طويلاً ، قلت وقد أصابنى شرود :
- بصقت دماً هذه الليلة ..

لم تصرخ ، بل بدت شاحبة للغاية . ترنحت وأرادت أن تتماسك ، ثم
سقطت بثقلها فوق الأرض .

أسرعت نحوها وقد أصابتنى صرعة : « مارسلين » ! « مارسلين » ! هيا !
ماذا فعلت ؟ ألا يكفى أن أكون مريضاً ؟ ولكننى كنت بالغ الوهن ، ألا
يجب أن أصاب بآلم بدورى ؟ فتحت الباب ، ورحت أنادى وأنا أهرول .
أذكر أننى وجدت فى حقيبتى رسالة توصية من ضابط المدينة ،
استخدمت هذه الرسالة كى أبحث عن طبيب .

كانت مارسلين فى تلك الآونة قد استردت عافيتها . . فهى جالسة الآن
عند طرف سريرى الذى كنت أرتعد فيه من الحمى . وصل الطبيب ، وراح
يفحصنا - أنا ومارسلين - أكد أن مارسلين ليس بها شىء ، وأنها لم تحس
بنفسها وهى تسقط ، أما أنا فقد زادت حالتى سوءاً ، لم يود أن يتكلم ،
ووعده أن يعود قبل أن يحل المساء .

عاد ، وابتسم لى وهو يتكلم ، وأخذ يسدى العديد من النصائح
الطبية . فهمت أنه يدينى - كما صرحت لكم - لم أرتجف ، كنت مصاباً
بالملل ، وتركت نفسى بكل بساطة . . ترى من يهينى الحياة ؟ لقد عملت
بكل طاقتى كل ما يمليه علىّ واجبى ، أما الباقى . . آه ! ماذا يهم ؟ فكرت
وأنا أرى عقلانيتى جميلة بشكل كافٍ . راحت بشاعة المكان تسبب لى

المعاناة . فغرفة هذا الفندق بشعة ، حين أنظر إليها ، فكرت أن هناك غرفة مشابهة مجاورة لغرفة زوجتي مارسلين . سمعتها تتكلم ، لم يكن الطبيب قد غادر المكان ، كان يتحدث معها ، حاول أن يتكلم بصوت خفيض ، مر بعض الوقت ، وكان عليّ أن أنام .

رأيت مارسلين عندما استيقظت ، أدركتُ أنها كانت تبكي ، لا أحب الحياة عندما أكون سبباً للشفقة ، لكن بشاعة هذا المكان تؤلمني ، وخاصة عندما تستقر عيناى عليه .

إنها الآن قريبة منى تكتب ، بدت لى جميلة ، رأيته تغلق رسائل عديدة، ثم قامت واقتربت من سريري ، وأمسكت يدي برقة وقالت :

- كيف حالك الآن ؟

ابتسمت وقلت بنبرة حزينة :

- ترى هل سأشفى ؟

وعلى الفور ردت : سوف تبرا .

أحسست بمشاعر مشوشة تجاه كل ما فى الدنيا كما أحسست بالحب تجاهها وتجاه الحياة المتموجة الجميلة ، والتي تبدو فى دموعها المتدفقة من عينيها لدرجة دفعتنى أن أبكى دون أن أجد القوة للدفاع عن نفسى .

وبكل حبها القوى دفعتنى أن أترك « سوسة » وهى تشملنى بكل عناية وحماية ورعاية وسهر . . ومن « سوسة » اتجهنا إلى « تونس » . ثم من « تونس » إلى « القسطنطينية » .

بدت مارسلين رائعة ، وكان عليّ أن أتماثل للشفاء فى « بسكرة » . وبدت

ثقتها شديدة ، ولم يفتر حماسها لحظة ، كانت قد أعدت كل شيء ، وتدبر كل شيء ، تتأكد من المسكن والرحيل ، هذا الرحيل الذي يبدو أقل بشاعة ، وتصورت مراراً أن على أتوقف ، كنت أتصيب عرقاً مثل شخص يحتضر ، وكنت أختنق أحياناً . وفي نهاية اليوم الثالث وصلت إلى «بسكرة» وأنا أقرب إلى الموتى .

لماذا نتكلم عن الأيام الخوالى ؟ وماذا بقى منها ، فذكرياتها
مثيرة للرعب . لم أعرف الكثير عمن أكون أنا ولا عن مكانى .

كنت أرى مارسيلين فقط ، وأنا فوق السرير ، جالسة . أعرف ان عواطفها
وعنايتها بى قد أنقذا حياتى . وأنا أشبهه ببهار ضائع يتطلع إلى الأرض .
كنت أحس بضوء الحياة ينبعث . واستطعت أن ابتسم لمارسيلين .

لماذا أحكى كل هذا ؟ الآن الموت قد لمسنى - كما يقال - بجناحيه ،
وأصبح من المدهش أن أكون على قيد الحياة ، وأصبح النهار بالنسبة لى
ضوءاً غير ملهم ، ففياً قبل لم أكن أفهم معنى أن يكون المرء حيّاً ؛ لذا يجب
أن أجعل من الحياة نبضاً دائماً .

لقد جاء اليوم الذى يمكننى أن أنهض فيه . امتثلت للشفاء فى بيتى ،
الذى لم يكن تقريباً سوى شرفة ، ويا لها من شرفة ! تطل عليها غرفتى وغرفة
مارسيلين ، تلك الشرفة تبدو كأنها راقدة فوق السطح . وفى أعلى المنزل
يستطيع المرء أن يتخيل ، ومن أعلى النخيل تطل الصحراء . وعلى الجانب
الآخر من الشرفة تقع حديقة المدينة . لقد كسرت أفرع الحديقة التى تظللها ،
إنها تمتد بطول الفناء ، فناء صغير مرتب ، مزروع فيه ست نخيلات ، ينتهى
بسلم يربطه بالفناء . كانت غرفتى رحبة ، يدخلها الهواء ، وحوائطها

بيضاء، غير معلق عليها شيء ، ويؤدي بابها الضيق إلى غرفة مارسلين ،
أما الباب الكبير الزجاجي فيفتح على الشرفة .

هناك تتعاقب الأيام بلا ساعات . كم رأيت الأيام البطيئة التي مرت أثناء
وحدتي ! وقد جلست مارسلين على مقربة مني تقرأ ، وتطرز ، وتكتب .
أما أنا فلا أفعل شيئاً ، أنظر إلى الشمس ، وأتطلع إلى الظل ، وأرى الظل
يجل مكان الضوء ، أفكر فيه قليلاً وأنا أرقبه . كنت لا زلت خائر القوى ،
أتنفس بصعوبة ، كل شيء يؤلمني ، حتى القراءة . . لماذا أقرأ ولديّ ما
يشغلني بما فيه الكفاية ؟ .

ذات صباح دخلت مارسلين وصاحت ضاحكة :

– جئت لك بصديق .

ورأيتهما تدخل خلفها صبيّاً عربيّاً صغيراً ، أسمر البشرة ، كان يُدعى
« بشير » ، تشع عيناه الواسعتان اللتان تنظران إليّ بالصمت ، أحسست
بالامتنان ، هذا الامتنان الذي يتعبني ، لم أقل شيئاً . وبدا الصبي غاضباً
أمام برودة استقبالي ، استدار نحو مارسلين ، وبحركة حيوانية لطيفة
وممازحة تكور أمامها ، وأمسك يدها ، وقبّلها بحركة كشفت ذراعيها
العاريّتين . أحسست أنه لا يرتدى شيئاً تحت غندورته البيضاء وتحت
برنسه^(١) غير المكويّ . قالت له مارسلين التي لاحظت اهتمامي :

– هيا ! اجلس ، اجعله يُسامرك .

(١) البُرس : كل ثوب ملتصق به غطاء للرأس .

جلس الصغير أرضاً ، وأخرج سكيناً من برنسه ، وقطعة من البوص ،
وراح يعمل ، إنه يود أن يصنع صفارة كما أتصور .

وبعد قليل ، لم يعد وجوده يضايقنى . رحت أنظر إليه وقد بدا أنه نسى
وجوده معنا . كانت قدماه حافيتين ، راح يضم البوص بقبضتيه . أخذ
يحرك سكينه بحركات تدعو إلى الدهشة . . ترى هل أهتم بهذا حقاً؟ كان
حليقاً على الطريقة العربية ، يضع على رأسه غطاءً صغيراً من القش .
وعندما سقطت الغندورة ظهر كتفه الدقيق ، وددت أن أحادثه ، لكننى لم
أفعل . استدار نحوى وابتسم ، أشرت له إشارة أن يعطينى الصفارة ، ثم
أمسكتها وأبديت إعجابى الشديد بها ، إنه يود الآن أن يرحل ، أعطته
مارسلين كعكة ، أما أنا فمنحته قرشين .

وفى اليوم التالى - وللمرة الأولى - أحسست بالملل وأنا أنتظر . ترى ماذا
أنتظر؟ أحسست بقلقى ، ثم تمللت أخيراً :

- ألن يأتى « بشير » هذا الصباح ؟

- إذا أردته ، فسوف أبحث عنه .

تركتنى ونزلت ، وبعد لحظة عادت وحدها ، ماذا أصابنى من مرض ؟
كنت حزيناً ، لقد تضايقتُ حين رأيته تعود بدون بشير .

قالت لى :

- الوقت متأخر ، وقد غادر الصبيّة المدرسة وتناثروا فى أماكن عديدة . .
تعرف أنه جذاب ، وأعتقد الآن أن الجميع يعرفوننى .

- حاولى أن يأتى هنا غداً على الأقل .

وفي اليوم التالي جاء بشير ، وجلس مثلما فعل قبل البارحة ، أخرج سكينه وأراد أن يشذب قطعة خشب صلدة ، وراح يجاهد وهو يغرس فيها نصل السكين . انتابتنى رجفة من السعادة ، راح يضحك وهو يكشف السكين اللامع ويحس بالفرحة وهو يراها تسيل دمه . كشف عن أسنانه البيضاء وهو يضحك ، وترك جرحه . بدا لسانه وردياً كأنه لسان قط . آه ! كم يبدو رائعاً ! إنه يمتلك أشياء أفقدها ، كالصحة ، فقد بدت صحة هذا الجسم الصغير على ما يرام .

وفي اليوم التالي جاء ببعض البلي ، وأراد أن يلاعبنى . لم تكن مارسلين هناك ، ترددت وأنا أنظر إلى بشير . أمسك الصغير ذراعى ، ووضع البلي بين يدي ، ودعكها . عانيت كثيراً وأنا أنحنى ، حاولت أن ألعب نفس اللعبة ، لكننى لم أستطع الاستمرار ، كنت بالغ التعب ، ألقى البلي وسقطت في مقعدى ، ارتبك بشير ، وراح ينظر إليّ ، وقال بطريقته اللطيفة :

- هل أنت مريض ؟

كانت رنة صوته حزينة . . وعندما عادت مارسلين قلت لها :

- خذيه ، فأنا تعبٌ هذا الصباح .

وبعد بضعة أيام من بصقى للدم رحت أمشى بصعوبة فى الشرفة . كانت مارسلين مشغولة بحجرتها ، ولحسن الحظ فإنها لم تر شيئاً ، أخذت ألث بشدة ، وفجأة امتلأ فمى كله . . إنه ليس دماً نقيّاً مثل ما فى البصقات السابقة . . إنه كُتِلُّ ضخمة مرعبة ، بصقتها فوق الأرض بكل ازدراء .

مشيت بضع خطوات مترنحاً ، وقد امتلأت بالتأثر ، ارتجفت ، فقد

استبد بي الخوف ، كنت غاضباً ، تصورت حتى هذه اللحظة أن الشفاء سيحل بي ، وأنه ليس عليّ سوى انتظاره . حدث هذا الأمر كي يردني القهقري ، شيء غريب ! البصقات الأولى لم تترك أثراً فيّ ، أتذكر الآن أنها جعلتني هادئاً ، فترى من أين يجيء خوفى ورعبي؟ هل يجيء في نفس اللحظة التي بدأت فيها أحب الحياة؟ .

عدت إلى الوراء ، وانحنيت متطلعاً إلى بصاقي ، أمسكت قشة ، ورفعت الكتلة الدموية ، ووضعتها في منديلي ونظرت إليها . إنها دم أسود ، كتلة جلاتينية مرعبة ، فكرت في دماء بشير النقية ، وفجأة انتابتني رغبة ، وأمنية مثيرة للرعب أكثر مما أحسست طيلة حياتي حتى الآن : أريد أن أعيش ، أن أعيش ، أن أعيش ! زمت أسناني ، ورحت أطلق بقبضتي بكل قوة نحو الفراغ .

بالأمس جاءتني رسالة من ت . . ثم رحت أرد على سؤال قلق من مارسلين ، كانت مفعمة بالنصائح الطبية إلى « ف . ت » . . بخطابه بعض الأوراق الطبية وكتاب متخصص ، بدا لي أكثر جدية . قرأت الرسالة بلا مبالاة وكأنني أكاد أن أطبعها ، تقاربت هذه الأوراق مع كل المعنويات التي لصقت بي منذ طفولتي . فيها هي ذى نصائح تفيدني . لم أفكر في أن هذه «النصائح الدرية» و «علاج الدرن الفعال» يمكن أن تنطبق على حالتي ، لم أظن نفسي مصاباً بالدرن ، بل أرجعت أعراضى الأولية إلى أسباب عديدة، أو بمعنى أصح لم أرجعها إلى شيء ، تجنبت التفكير فيها، وحكمت على نفسي أنني قد شُفيت ، أو شيء كهذا تقريباً ، قرأت الكتاب ، وتصفححت أوراقه ، وتعاملت معها فجأة بأسلوب مخيف ، خيّل لي أنني لم أعتنِ بنفسي بما فيه الكفاية ، لقد تركت نفسي أحيًا حتى تلك

اللحظة ، وتعلقت بأمل قوى ، فجأة بدت لى حياتى كأنها معرضة للهجوم ، هجوم تحت الحزام ، هناك عدو متعدد القوى ، ملء بالحيوية ، ويعيش معى ، أسمع وأراقبه . وأحس به ، لم إهزمه بدون مقاومة ، أضفت بصوت خفيض حتى أحاول أن أقنع نفسى :

-إنها مسألة إرادة .

ووضعت نفسى فى حالة عدوانية .

وعندما حل الليل رتبت أمورى ، ولبعض الوقت ، كان شفائى حالة من التمحص ، وكان همى صحتى ، ويجب أن أكون فى حال أفضل ، وكل ما يهمنى أن أكون « بخير » ، وأن أنسى ، وأن أدفع عنى كل ما يثيرنى ؛ ولذا فقبل أن أتناول وجبة المساء رحت أقوم بتمرينات تنفسية وغذائية ، وأضع حلولاً للأمور .

تناولنا طعامنا فى كشك صغير تحوطه الشرفة من كل الأنحاء ، جلسنا هادئين ، بعيدين عن كل شىء مثير ، وكانت المحبة التى تجمع مائدتنا رائعة ، حَمَل إلينا زنجى عجوز من فندق مجاور الطعام المناسب ، دقت مارسلين فى قائمة الطعام ، وأوصت على طبق ، وتجاوزت بقية الأطباق . . لم أحس بجوع شديد ، ولم أفقد الأطباق الناقصة ، ولا قائمة الطعام غير الكافية . لم تعتد مارسلين على تناول الكثير من الطعام ، ولا تعرف كيف تأخذ فى حسابها أننى لا آكل ما يكفينى ، فالأهم هو أن آكل كثيراً ، وبأى طريقة . وأدعى أننى لم أنفذ ذلك فى تلك الأمسية ؛ لأننى لم أقدر . كان أمامنا طبق من الأسماك الخليطة ، ومشويات تمت تسويتها جيداً .

بدا سخطى شديداً ، أكثر مما بدا على مارسلين ، رحت أنثر أمامها

كلمات انفعالية ، وأنا أتهمها ، بدت كأنها تسمعنى ، وأنها تحس بالمسئولية عن رداءة هذه الوجبات ، وأن هذا التأخير البسيط للنظام الذى اتبعته أصبح ذا خطورة وأهمية ، نسيت الأيام الخوالى ، فقد أفسدت هذه الوجبة الناقصة كل شىء ، وتحجرت ، وكان على مارسلين أن تنزل إلى المدينة لتبحث عن علب مأكولات محفوظة ، مهما كان نوعها .

وفى المساء لم تعد الوجبات فى أفضل حالاتها ، برغم أنها أكثر عدداً . كانت هناك وجبة كل ثلاث ساعات ، الأولى فى السادسة والنصف ، وكان علينا أن نحفظ بمعلبات من كل الأنواع ، وأن نطلب عينة من كل أطباق الفندق .

لم أستطع النوم هذا المساء ، انتابتنى مشاعر جديدة عن فضائلى الجديدة . أعتقد أن حمى أصابتنى ، كانت هناك زجاجات مياه معدنية ، شربت زجاجة ، وأعقبْتُها بأخرى ، ثم الثالثة مرة واحدة . تغلبت على إرادتى ، وأمسكت عدوانيتى ، ووجهتها قبالتى ، كان علىَّ أن أناضل ضد كل شىء ، فصحتى تخصنى وحدى .

وأخيراً رأيت الليل مصاباً بالشحوب ، ومن شحوبه يتولد النهار ، إنها صحوة قوتى .

كان اليوم التالى هو الأحد ، لم أكن قلقاً آن ذاك بشأن إيمان مارسلين ، أو اختلافاتها ، أو عفتها . بدا لى أن هذا ليس مسألة نقاش ؛ لذا لم أعلق بها أهمية ، ففى هذا اليوم توجهت مارسلين إلى القديس ، وعلمت عند عودتها أنها صَلَّتْ من أجلى . دققت النظر فيها ، ثم قلت بكل ما أملك من رقة :
- يجب ألا تُصَلِّى من أجلى يا مارسلين .

-
- قالت بشيء من الاضطراب :
- لماذا؟
- لا أحب هذه الأمور .
- هل ترفض مساندة السءاء ؟
- لا شك أننى أعترف بالجميل ، لكن هذا يسبب متاعب قد لا أريدها .
- بَدَوْنَا كأننا نمزح ، لكننا لم نتطرق إلى أهمية كلماتنا . تنهدت قائلة :
- لن تشفى وحدك يا صديقى المسكين .
- طبعاً .
- أضفتُ وأنا أرى حزنها بلهجة أخف شدة :
- سوف تساعدينى .

تكلمتُ مراراً عن جسدى ، وسوف أتكلم عنه كثيراً ، مما سيجعلكم تتصورون أننى قد نسيت جزءاً من روحى ، فإهمالى

فى هذا النص شىء إرادى ، إنه هناك . لم يكن لىّ ما يكفى من القوة للدخول فى حياة مزدوجة ، أما الروح فسوف أتحكم فيها فيما بعد ، عندما أشفى .

كنت متعباً ، وبلا سبب كنت أتصيب عرقاً ، وبلا سبب تملكنى رجفة البرد ، كنت مثلما قال روسو : « لاهث النفس » ، أحياناً أصاب بالقليل من الحمى ، ودائماً تتتابنى - خاصة فى الصباح - مشاعر مرعبة ملولة ، وأبقى دائماً خائر القوى فى مقعدى ، نافراً من كل شىء ، أناانياً ، ومهموماً وأنا أتنفس بصعوبة . تنفست بضيق شديد ، وبكل صعوبة ، كان زفيرى يتصاعد إلى مرحلتين ، أما إرادتى فلا يمكن الإمساك بها تماماً ، ولقد ظللت فترة طويلة أحاول أن أتجنب ذلك بكل ما أملكه من قوى .

لكن الذى جعلنى أعانى أكثر هو أن درجة حرارة مشاعرى المرضية قد تغيرت كثيراً ، أفكر ، وأنا أتذكرها الآن ، إنها كانت حالة عصبية زادت من حدة المرض ، لم أستطع أن أفسر أن هذه السلسلة من الأعراض ليست سوى حالة درن بسيطة ، فقد كنت دائماً إما بالغ السخونة أو بالغ البرودة ، فأغطى جسمى بالمزيد من الأغطية ، ولا أتوقف عن الارتعاد ، وأتصيب

عرقاً ، ثم أنزع الغطاء قليلاً وأنا أرتجف من عدم القدرة على التنفس ، تتجمد أجزاء من جسدى وتصبح باردة - برغم العرق - فى ملمسها وكأنها الرخام ، لا شىء يمكنه أن يدفئها . كنت حساساً للبرد لدرجة أن نقطة من الماء لو سقطت فوق قدمى وأنا فى الحمام فإنها تصيبنى بنزلة شعبية ، وحساساً أيضاً للحرارة بنفس الدرجة ، واحتفظت بهذه الحساسية ، وظللت على هذا المنوال ، طوال اليوم كان الأمر مثيراً للمتعة ، فكل حساسية حية ، تبعاً للعضو عندما يكون قوياً أو ضعيفاً ، تصبح على ما أعتقد سبباً للذة أو الحرمان ، فكل ما يسبب لى القلق أصبح بسبب اللذة .

لم أكن أعرف كيف يمكن أن أنام والنوافذ مغلقة ، تبعاً لنصيحة «ف . . .» حاولت أن أفتحها . . فى المساء قليلاً فى البداية ، ثم دفعتها على مصراعيها ، لعل هذا سيصبح عادة ، لكن ما إن تنغلق النوافذ حتى أختنق ، ومع بعض اللذة أحسست فيها بعد أنى أدخل إلى نسيم الليل ونور القمر .

حدث أن انتهت هذه التأثيرات الصحية الأولى بفضل تلك العناية الشديدة ، وذلك الجو النقى ، وبرنامج غذائى أفضل ، وسرعان ما تحسنت . وحتى تلك الآونة كنت أخشى لهاث السلم ، ولم أجروء على ترك الشرفة فى الأيام الأخيرة من يناير ، ثم أخيراً غامرت بالنزول إلى الحديقة .

اصطحبتنى مارسيلين ، وهى تضع شالاً على كتفها . كانت الساعة الثالثة مساءً ، والرياح تهب شديدة فى هذا البلد ، مما ضايقنى طوال ثلاثة أيام ، لكن نسمة الهواء كانت بديعة .

إنها حديقة عامة يقطعها ممر واسع ، ويظللله صفان من النخيل العالى

الذى يسمونه بالخزائن ، وفي ظل هذه الأشجار توجد مقاعد وقناة نهريّة صغيرة ، أعنى أن عمقها أكبر من اتساعها ، على مقربة من اليمين الممر الطويل ، ثم هناك قنوات أخرى أقصر تقسم مياه النهر ، وتصيبها عبر الحديقة نحو النباتات ، والمياه الراكدة بلون الأرض ، لون الصلصال الوردي أو الرمادي . . لا يوجد غرباء . . هناك بعض العرب يتزهون ، الذين ما إن يتركوا المكان حتى تكتسى معاطفهم بلون الظل .

تملكتنى رعشة غريبة عندما دخلت منطقة الظل ، تلفعت بالشال ، لم أحس بأى ألم ، بل على العكس ، جلسنا فوق أريكة ، التزمت مارسلين الصمت . مرّ بعض العرب ، تتبععتهم مجموعة من الأطفال ، كانت مارسلين تعرف الكثيرين منهم ، وراحت تحييهم ، فاقربوا منها ، أبلغتنى بأسمائهم ، ودارت بينهم أسئلة وإجابات ، وابتسامات وتجهّمات ، وألعاب صغيرة ، كل هذا حركنى قليلاً ، إلا أننى أحسست مرة أخرى بالضيق ، وتصيب العرق فى بدننى ، سألت نفسى : ترى فيمَ يعنينى هذا ؟ إنهم ليسوا سوى أطفال ، وهى أيضاً ، نعم إنها تتصرف هكذا ، ضايقنى وجودها ، فلو قمْتُ من مكانى راحت تتبعنى ، وإذا نزعْتُ الشال عنى تجعلنى ألبسه ، وإذا خلعته بعد ذلك تقول : « ألسْتُ مصاباً بالبرد ؟ » . ثم تتكلم إلى الأطفال ، لم أجرو أن أكلّمهم ، أحسست أنها تحميهم رغماً عنى ؛ ولذا أحسست أن علينا أن نرحل . قلت لها : « هيا بنا إلى المنزل » . وقررت أننى لو عدت إلى الحديقة مرة أخرى فسأفعل ذلك وحدى .

فى اليوم التالى خرجت فى نحو العاشرة صباحاً ، وسرعان ما انتهزت الفرصة ، جاء بشير يرفع شالى ، وهو الذى لم يعد يأتى إلا قليلاً ، أحسست أننى خفيف الحركة ، وأن قلبى يطير فى الهواء ، كنا تقريباً فى

الممشى ، أسير ببطء ، أجلس لحظة ، وأعاود المشى . . يتبعنى بشير .
وصلت إلى ناحية النهر ، حيث تقوم الغسالات بالغسيل ، ووسط التيار
هناك حجر مسطح نامت فوقه فتاة صغيرة ، وقد مالت بوجهها نحو المياه ،
وغمست يدها فى التيار ، لعلها سقطت فيها ، أو وضعتها عن طيب
خاطر، وقد لمست قدميها الحافيتان المياه ، إنها تود أن تبلل نفسها من هذا
الحمام ، ويبدو جلدها كأنه محفور . اقترب منها بشير وراح يكلمها ،
استدارت وابتسمت لى ، وردت على بشير باللغة العربية . قال لى : إنها
أختى . ثم أخبرنى أن أمه ذهبت للغسيل وأن أخته الصغيرة تنتظرها ، وأن
اسمها « خضراء » . قال كل هذا بصوت رخيم وواضح ، وطفولى المشاعر،
ثم أضاف :

-إنها تطلب أن تمنحها قرشين .

أعطيته عشرة ، وبينما أستعد للرحيل وصلت الأم ، الغسالة ، بدت امرأة
رائعة ، بدينة ، وعلى جبهتها وشم كبير أزرق ، ترتدى قلنسوة من الكتان
فوق رأسها تبدو أشبه بحاملات القرابين القدييات ، وقد تحجبت قليلاً
بقماش أزرق غامق حوله حزام يتدلى حتى قدميها . ما إن رأت بشيراً حتى
أشارت له متجهمة ، وردّ بعنف ، وتدخلت الفتاة الصغيرة . دار بين
الثلاثة نقاش ملىء بالحوية ، ثم راح بشير أخيراً يفهمنى أن أمه فى حاجة
إليه هذا الصباح . مد لى يده بالشال وقد ارتسم عليه ضيق ؛ لذا كان على
أن أستكمل مشوارى وحدى .

لم أتحرك سوى عشرين خطوة ، وبدا الشال ثقيلًا لا يُحتمل ، ٣٣
تصببت عرقاً وجلست فوق أول مقعد قابلنى ، وتمنيت لو ظهر صبيٌّ يخفف

عنى هذا الحمل ، وكان أول طفل ظهر فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً ، أسود كأنه سودانى ، وبدون خجل قدمت نفسى له ، اسمه عاشور ، بدا لى جميلاً رغم أنه أعور ، يحب الحديث ، أخبرنى أنه قادم من ناحية النهر ، وأنه بعد الحديقة الغامة توجد واحة يخترقها النهر ، نسيت تعبى وأنا أسمع ، أكثر خفة مما بدا لى بشير ، اقترب منى أكثر ، وبدوتُ سعيداً لأن الأشياء تغيرت ، وعدتُ أنه أنزل مرة أخرى إلى الحديقة وحدى وأن أنتظره ، أن أجلس فوق مقعدى ، وأنتظر أن تحين مصادفة لمقابلته .

بعد أن توقفت مرات عديدة وصلنا أنا وعاشور أمام بابى ، وددت أن أدعوه للصعود مرة ، لكننى لم أجرؤ ، فأنا لا أعرف ماذا ستقول مارسلين . وجدتُها فى صالة الطعام جالسة على مقربة من طفل صغير هزيل ، يبدو نحيفاً ، لم أشعر نحوه فى البداية إلا بالاستياء أكثر من الشعور بالشفقة ، وبكل حياء ، قالت مارسلين :

- مسكين هذا الصغير فهو مريض .

- أتمنى ألا يكون مرضه معدياً . . ماذا به ؟

- لا أعرف بالضبط ، إنه يشكو من كل شىء ، ويتكلم الفرنسية بصعوبة . عندما سيكون بشير هنا غداً سنطلب منه تفسيراً لما فعله . . وسأجعله يتناول الشاى .

وكنوع من الاعتذار - ولأننى جلست بعيداً بدون أن أتكلم - أضافت :

- إننى أعرفه منذ وقت طويل ، ولم أجرؤ أن أجعله يأتى ، أخشى أن يسبب لك تعباً ، أو لا يروق لك .

قلت : لماذا ؟ أحضري كل الأطفال كما تريدن ، فهم يبحثون على التسلية .

وفكرت أننى لم أتصرف بشكل جيد عندما لم أجعل عاشوراً يصعد .
نظرت إلى زوجتى ، تبدو أمّاً حنوناً ، مداعبة ، بدت رقبتها مؤثرة نحو الصغير، حدثتها عن نزهتى ، ورحت أفهم مارسلين بكل رقة سبب خروجى وحدى .

اعتدت أن تكون ليالى مليئة بالأزمات التى توقظنى وقد تشلج جسدى أو تصيب عرقاً ، كانت هذه الليلة رائعة ، وتقريباً بلا أزمات ؛ لذا ففى صباح اليوم التالى استعددت للخروج فى الساعة التاسعة ، كان الجو جميلاً ، وأحسست بأننى فى حال أفضل ، وأننى أقل ضعفاً ، وسعيداً ، وأننى أنشد التسلية . بدا الجو هادئاً ودافئاً ، ومع ذلك أخذت الشال بدافع الاحتياط ، ربما ليكون حجة للتعرف على شخص يحمله عنى . قلت إن الحديقة تكاد تلمس شُرفتنا ، وسرعان ما دخلت فى ظلها . بدا الجو صحواً ، واكتست أشجار السنط بالأزهار قبل أن تكسوها الأوراق ، فبعثت فى المكان رائحة مجهولة ، تثير البهجة فى داخلى . تنفست بكل ارتياح ، وبدت خطواتى أكثر خفة ، ومع ذلك جلست فوق أول مقعد أكثر نشوة من الأمس ، رحت أنظر حولى ، بدا الظل مناسباً وخفيفاً وهو ينبسط فوق سطح الأرض ، وبدا كأنه محفور هناك ، آه أيها الضوء ! إننى أسمعك . ترى ماذا أسمع ؟ لا شيء ، بل كل شيء ، رحت أتسلى بسماع الأصوات البعيدة ، وأتذكر الشجيرات التى تبدو جذوعها من بعيد أشبه بكائنات غريبة على أن أقوم كى ألمسها ، مسستها وكأنى أداعبها ، وجدتها رائعة ، وتساءلت : ترى هل ولدت من جديد هذا الصباح ؟

نسيت أننى وحدى ، لم أنتظر شيئاً ، نسيت الزمن ، بدا لى أننى أحس أكثر مما أفكر ، وأننى مندهش لهذه النتيجة ، فعلى إحساسى أن يكون أقوى من فكرى .

ها هى ذى آلاف الأضواء تتولد ، وتتناثر آلاف الأحاسيس ، وهى ذى أحاسيسى تسمح لى بالتوقد ، وتكمن فيها قصة الماضى بأكمله ، تعيش فيه ، تحيا ! لم تكف قط عن العيش ، وتكشف نفسها عبر سنوات دراستى ، حياة كامنة ومشرقة لا مثيل لها .

لم أقابل أحداً طيلة هذا اليوم ، وفكرت فى الراحة ؛ لذا أخرجت من جيبى كتاب « هوميروس » الصغير ، الذى لم أفتحه منذ رحيلى إلى مارسيليا ، وقرأت ثلاث عبارات من « الروسية » ، وجدت فيها مادة كافية لراحتى ، ثم طويت الكتاب ، أصابتنى رعشة جسدية أكثر حيوية مما كنت أظن ؛ ولذا رحت أبعد عنى الخمول الذى كان يُسبب لى السعادة فيما قبل .

في تلك الآونة لاحظتُ مارسلين، وهي سعيدة ، إن صحتي قد رُدَّتْ إليّ، وبدأت لبضعة أيام تحدثني عن بساتين الواحة

الرائعة . إنها تحب الهواء الجميل والمشى ، أما الحرية التي افتقدتها في مرضي فقد سمحتُ لها بممارستها طويلاً كما تشاء ، وحتى تلك الآونة لم نكن نتكلم كثيراً ، ولم تجرؤ أن تحثني على أن أتبعها ، وكم خشيت أن تراني مغموساً في حزنى وأنى غير قادر على التمتع بوقتي ، ولكنني الآن أصبحت في حال أفضل ، اعتمدت على جاذبيتها كي تجعلني أمتثل ، وسرعان ما أحسست بحلاوة المشى والتطلع حولي ؛ لذا فبداية من اليوم التالي خرجنا معاً للنزهة .

سبقتني في طريق غريب ، لم أر مثله في أى بلد آخر ، يدور بين جدارين مرتفعين عن الأرض ، وقد اتخذ شكل الحدائق التي راحت تحدها الجدران . ينحني الطريق ، ثم ينكسر ، وعند بداية المدخل توجد انحناءة تجعلك تشعر بأنك تائه ، ولا تعرف من أين ولا إلى أين الطريق ، أما المياه فتبدو قادمة من النهر وتتبع المجرى بطول الجدران التي تصنع الطريق من الأرض ، إنها الواحة الداخلية ، أما الصلصال الوردى أو الرمادى الرقيق فإن المياه تجعله أكثر ليونة ، في حين أن الشمس الحارة تسبب الإزعاج وتنشر الحرارة ، لكنها لا تلبث أن تسترخي عند قطرات المطر الأولى ، وتصنع عندئذ أرضاً

هشة تغوص فيها الأقدام الخافية . عند اقترابنا طارت العصافير، فراحت
مارسلين تنظر نحوى وقد انتابتها نشوة عارمة .

نسيثُ تعبى وضيقى ، وسرثُ صامتاً وأنا أشعر بالمتعة والخفة
والانشراح . فى هذه اللحظات كان اللهات خفيفاً . وراح النخيل يهتز .
رأيت النخيل العالى ينحنى ، ثم ساد الجو سكون ، سمعتُ صوتَ ناى
قادمًا من خلف الحائط ، رُحناً نتبعه ، ودخلنا من فتحة وراء الحائط .

إنه مكان ظليل ملىء بالضوء والهدوء ، يبدو لى كماوى يهرب إليه المرء
من الزمن ، ملىء بالصمت والأنين ، وتسمع فيه أصوات المياه المناسبة التى
تروى النخيل ، وتنساب من شجرة لشجرة ، وتنادى طيور « الترغلة » بلغة
خاصة تتغنى على أنغام ناى ينفخ فيه طفل صغير ، إنه حارس لقطيع من
الماعز ، كان جالساً فوق جذع نخلة مكسورة ، لم ينزعج لظهورنا ، ولم
يهرب ، ولم يتوقف عن العزف إلا للحظة .

لاحظت أثناء الصمت القصير أن ناياً آخر يرد عليه ، تقدمنا قليلاً ، ثم
قالت مارسلين :

- ليس مهماً أن نذهب أبعد من ذلك ، فهذه الخضرة تتشابك معاً عند
أطراف الواحة ، ترى هل ستصبح أكثر اتساعاً ؟

وافترشت الشال أرضاً وقالت :

- استرخ .

لا أعرف كم من الوقت بقينا ، ولا كم ساعة ؟ كانت مارسلين قريبة
منى ، فتمددت . ووضعت رأسى فوق ركبتيها ، وانطلق عزفُ الناى ،
يتوقف لحظات ثم يعاود الانطلاق ثانية متلاحماً مع خرير المياه . . أحياناً

تزعق إحدى الماعز ، فأغلق عيني ، وأحس بيد مارسيلين المنعشة فوق جبهتي ، وأحس بالشمس الحارة تتسلسل من بين النخيل ، فلا أفكر في شيء ، فلماذا يفكر المرء وتملؤه أحاسيس بالدهشة ؟ .

وللحظات عادت الضجة من جديد ، ففتحت عيني ، إنها الرياح الخفيفة تهب من بين النخيل ، إنها لا تنزل إلينا ، ولا تحرك سوى النخيل العالى .

في صباح اليوم التالى عدت إلى نفس الحديقة مع مارسيلين ، وفي مساء نفس اليوم عدت إليها وحدى ، كان هناك راعى الماعز الذى يعزف على الناي ، اقتربت منه وكلمته ، كان يُدعى « لطيفاً » ، وفي الثانية عشرة من عمره . كان جميلاً ، أخبرنى باسم ماعزه ، وقال : إن القنوات تسمى « ساقية » ، وإن المياه لا تجرى فيها دوماً ، فالمياه تجف أحياناً ، وتجعل النباتات مصابة بالعطش ، ثم ما تلبث أن تعود إليها ، وفي أسفل كل نخلة هناك حفرة صغيرة تلتقط المياه وتروى الشجرة ، إنه نظام إلهى عبقرى . راح الطفل يتحدث عنه وكأنه يعزف ، وشرح لى أن السيطرة على المياه جاءت من فكرة وجود العطش الأكبر .

وفي اليوم التالى رأيت شقيق « لطيف » . كان أكبر منه سنّاً ، وأقل جمالاً ، كان يدعى « هاشمى » . ومن خلال سلم خاص مصنوع فوق لحاء النخلات القديمة المقطوعة ، رأيته يتسلق النخلة ، ثم ينزل بسهولة ، ورأيت تحت معطفه الطائر ملابسه المذهبة . راح يأخذ لأعلى الشجرة ، التى لا حواف لها إناء من الطين كى يضعه فوق جروح النخيل ويستخرج منها عصارة أشبه بالنيذ اللذيذ الذى يعجب كل العرب ، إنه عرق البلح .

تذوقته بدعوة من « هاشمي » ، لكن هذا الطعم « الماسخ » الحار واللاذع لم يعجبني .

في الأيام التالية رحت بعيداً ، ورأيتُ حداثقَ جديدة ، ومراعىَ أخرى ، وبعض قطعان الماعز ، وكما قالت لي مارسلين ، فإن كل الحداثق متشابهة . ومع ذلك تبدو مختلفة .

كانت مارسلين تصحبني هناك أحياناً ، ولكن غالباً ما إن تدخل الحداثق ، حتى أتركها ، وأدعى أن التعب قد أصابني ، وأنى أريد الجلوس ، وعليها ألا تنتظرنى ؛ لأنها في حاجة إلى المشى أكثر ، ويجب ألا تُنهي نزهتها . أبقى قريباً من الصبغار الذين تعرفت على العديد منهم ، فأحدث معهم طويلاً ، وأتعلم ألعابهم ، وألقنهم ألعاباً أخرى أفقد فيها كل قروشى ، ويصحبني بعضهم إلى مسافات بعيدة (كنت أطيل خطواتي كل يوم) وأمشى في طريق جديد ، وأنا أرتدى معطفى وشالى ، وأحياناً الاثنين ، وقبل أن أتركهم أوزع عليهم قطع النقود فيروحون يتبعوننى أحياناً حتى باب منزلى ، وأحياناً يمرون من هناك .

راحت مارسلين ، من ناحيتها ، تأتى بالتلاميذ وتشجعهم على العمل - بعد الخروج من المدرسة - حيث يأتيها العقلاء منهم ، وأكثرهم رقة ، أما أنا فكنت أصحب معى آخرين وأجمعهم كى نلعب معاً ، نهتم دوماً بإعداد المشروبات والحلوى ، وفيما بعد كان البعض يأتى من تلقاء نفسه حتى وإن لم ندعه .

في آخر شهر يناير تغير الجو فجأة ، وهبت رياح باردة ، وعلى الفور تأثرت صحتى ، وانكشف الفضاء الواسع الذى يفصل الواحة عن المدينة ،

ولم يصبح الجو بالنسبة لى منعشاً ، أصبح علىّ أن أبتعد عن الحديقة العامة ،
ثم راحت السماء تمطر مطراً جليدياً قادمًا من كل الآفاق ، فمن الشمال
هب الجليد الذى يغطى الجبال تماماً .

قضيتُ هذه الأيام الحزينة قريباً من المدفأة ، أناضل قَدْرَ الأمكان ضد
المرض الذى انتصر علىّ فى هذا الجو الردىء . . أيام مريرة ، لم أستطع فيها
أن أقرأ ولا أن أعمل ، كان أقل جهد يجعلنى شديد اللهاث ، أمّا التأمل
فكان ينهكنى ، وإذا لم أسهر على صحتى أشعر بالاختناق .

كان الأطفال طوال هذه الأيام الحزينة هم سلوتى الوحيدة ، ففى الأيام
الممطرة اشتدت العلاقات الأسرية ، جاءوا يوماً وقد ابتلت ملابسهم ،
وجلسوا حول النيران يصنعون دائرة ، ومر وقت طويل بدون أن يتكلموا ،
وكُنت متعباً للغاية ، أعانى من شىء ما ، فلم أنظر إليهم ، كانت صحتهم
الطبية تُبرئنى ، أما مارسلين فقد أخذت تقول إنهم ضعفاء ، ونحفاء ،
وبالغو التعقل . شعرت بالغضب عليها وعليهم ، وددت أن أطردهم ؛
لأنهم كانوا يسببون لى الخوف .

ذات صباح اشتد غضبى على نفسى ، فمختار هو الوحيد الذى لم
يضايقنى قط ، وكانت امرأتى تدافع عنه ، ربما لأنه أكثرهم جمالاً . .
جلس معى فى غرفتى ، بدت نظرتة ذكية ومليئة بالحزن ، وانتابنى فضول
دفعنى لمراقبة حركاته ، كنتُ واقفاً على مقربة من النار ، وقد أسندت مرفقى
فوق المدفأة أمام كتاب ، بدوت منهكاً ، لكننى أخذت أرقب حركات
الطفل الذى يشعر بالبرد وأنا أوليه ظهري . لم يعرف مختار أننى أرقبه وتصور
أننى منهمك فى الكتاب ، رأيتة يقترب من مائدة حيث وضعت مارسلين

فوقها زوجاً من المقصات الصغيرة ، فالتقطتها خلسة ، ثم وضعهما بين
ملابسه . خفق قلبي بشدة للحظة ، لا أعرف لماذا لم أحس في داخلي نحوه
بالغضب ، بل على العكس ، فإنني أؤكد أن الشعور الذي انتابني كان شيئاً
آخر غير الفرحة . لقد تركت لمختار الفرصة أن يسرقني ، استدرتُ نحوه
وتحدثت إليه كأن شيئاً لم يكن ، لا شك أن مارسلين تحب هذا الغلام كثيراً ،
لذلك لم أفعل شيئاً ، لعلّ خائف أن أوْلهما ، عندما سأراها سوف أحدثها
عن ضياع المقصين ، وأخبرها أنني لا أعرف شيئاً ، لكنني أجزم أنه منذ هذا
اليوم أحسست أن مختاراً هو طفل « مختار » .

لم يكن مقدراً لإقامتنا في « بسكرة » أن تستمر لفترة أطول ، فقد انتهت أمطار فبراير ، وانطلقت الحرارة بكل قوتها ، وبعد أيام

عديدة عسيرة عشناها تحت زخات المطر ، صحوت فجأة ذات صباح وقد علتني البهجة ، ما إن استيقظتُ حتى جريت نحو الشرفة العليا ، وبدت السماء نقية بطول الأفق ، وتحت أشعة الشمس الحارة تصاعدت الأبخرة وانطلق الدخان في جميع أركان الواحة ، سمعنا زجرة بعيدة عن الوادي ، كان الجو نقيًا وجميلًا ، وأحسست أنني أفضل بكثير . وعندما جاءت مارسلين وددنا الخروج ، لكن الطين في ذلك اليوم أعاقنا .

وبعد أيام من عودتنا إلى « كرمة نصيف » بدت جذوع الأشجار ثقيلة ومنداة وغارقة في المياه . هذه الأرض الإفريقية التي لم أعرفها قط ، تغطس لأيام طويلة ، وها هي الأخرى تهب من الشتاء ثملةً من الماء ، وتنفجر من بين العصارات الجديدة ، وتضحك لقدوم ربيع قوى أحسست بعطره وكأنه يتعاضم في داخلي . اضْطَحَبْنَا عاشور ومختار في البداية ، سعدتُ لصداقتهم العابرة ، فهي لم تكلفني سوى نصف فرنك يوميًا ، ولكنني فيما بعد ، شعرت بالملل منها . انتباني الإحساس أنني أكثر ضعفًا وفي حاجة إلى صحة كصحتهم ، لم أجد في ألعابهم الدافع اللازم كي أكون مبتهجًا ،

عدت إلى مارسيلين لاهثاً بأملى وبأحاسيسى ، غمرتها بهجة حلت مكان حزن رأيته يجثم عليها ، اعتذرت كطفل دائم الخطأ ، وأرجعت ذلك إلى ضعفى ومزاجى « الفالت » والغريب ، وأكدت أننى حتى الآن كنت بالغ التعب كى أحب ، ولكننى منذ الآن فصاعداً أحس أننى أنمو مع صحتى وحبى ، تكلمت بصدق ، كنت بلا شك ضعيفاً ، وأمامى شهر على الأقل كى أشتهى مارسيلين .

ومع كل يوم ترتفع درجات الحرارة . لا شىء يربطنا بـ « بسكرة » سوى هذا السحر الذى يذكرنا على التو بقرارنا بالرحيل الذى تم اتخاذه ، وخلال ثلاث ساعات استعددنا ، وفى فجر اليوم التالى أقلع القطار .

أذكر الليلة الأخيرة ، كان القمر شبه مكتمل ، راحت أشعته الفضية تدخل من نافذتى الكبيرة المفتوحة إلى غرفتى ، كانت مارسيلين نائمة ، أما أنا فرحت أفكر ، كنت متمدداً لا أستطيع النوم ، أحسست بحمى تلهبى من السعادة أنه ليس هناك فى الدنيا سوى الحياة . . قمت مرتعداً وقد نضح وجهى ويداي بالعرق ، ثم دفعت الباب الزجاجى ، وخرجت .

كان الجو متأخراً ، لا ضجيج ، ولا همس ، يبدو الجو نائماً أيضاً ، أكاد أسمع صوت الكلاب يأتى من بعيد وكأنها ابن آوى ، كانت تنبح طيلة الليل . أمامى الحوش الصغير ، والأسوار الواطئة تحدث ظلالاً مائلة ، والنخلات كعادتها بلا أى لون ولا حياة تبدو ساكنة للأبد . . لكن أحياناً نجد فى النوم صخب الحياة : هنا لا يبدو شىء نائماً ، كل شىء يبدو ميتاً ، أحس بالخوف من هذا الهدوء الذى راح يغزوينى فجأة من جديد كنوع من الاحتجاج . . والوحشة فى الصمت موحشة لدرجة تدفعنى للصراخ

كالحيوانات ، أمسكتُ يدي اليسرى بيدي اليمنى ، أردتُ أن أحملها إلى رأسي ، وفعلت ، لماذا ؟ كي أؤكد لنفسي أنني على قيد الحياة ، ووجدت هذا رائعاً ، لمست جبهتي ورموشي ، وامتلكتنى رعشة ، سوف يحل يوم جديد ، فكرت في أن يوماً آخر سيأتي ، وكي أوفر لشفتي المياه التي تروى عطشي ، فيجب أن تكون لدى القوة الكافية ، عدت ، ولكنني لم أنم أيضاً ، أردت أن أثبت نفسي هذه الليلة ، وأن أركز الذكري في فكري ، وأن أمسك بها ، وتحيرت فيما سأفعله ، أمسكت كتاباً من فوق مائدتي - الإنجيل - وتركته مفتوحاً ، واتجهت إلى نور القمر كي أتمكن من القراءة ، وقرأت كلمات السيد المسيح إلى بير ، هذه الكلمات التي لا يمكن أن أنساها : « الآن ، حزم نفسك ، واذهب حيث تشاء ، ولكن عندما ستصبح عجوزاً ، امدد يديك . . امدد يديك » .

وفي فجر اليوم التالي رحلنا .

لن أتكلم عن كل مرحلة من السفر ، خاصة تلك التي لم تترك
ذكرى مؤثرة ، كانت صحتي أحياناً أفضل ، وأحياناً أسوأ ،

تتأثر لتوها بالرياح الباردة ، وتقلقها ظلال السحب ، وترتبط حالتني
العصبية بالمتاعب المتكررة ، ولكن رتتني على الأقل قد شفيتا ، وأصبحت كل
انتكاسة أقل طولاً ، وأقل حدة ، وعندما يكون هجومها شديداً ، يصبح
جسدي مسلحاً ضدها .

توجهنا من تونس إلى مالطا ، ثم إلى سيراكوزة ، عدت إلى الأرض
الكلاسيكية التي كنت أعرف لغتها وماضيها . منذ بداية ألى عشت بلا
امتحان وبلا قانون يجبرني أن أعيش ببساطة ، مثلما يفعل الأطفال
والحيوانات . أنشغل الآن أكثر بالألم ، وأصبحت حياتي أكيدة وواعية ،
وبعد هذه المعاناة الطويلة ، أعتقد أنني قد ولدت من جديد ، وفصلت
ماضي عن حاضري ، وجدت نفسي جديداً في أرض مجهولة ، يمكن أيضاً
أن أكون منهكاً ، فكل ما تعلمته هنا فاجأني . إنني قد تغيرت تماماً .

عندما أردت - في سيراكوزة وفيما بعد - أن أستكمل دراستي ، وأن أغوص
مثل غابر الزمان في امتحان الماضي ، اكتشفت أن شيئاً قد استُلب مني ،
على الأقل فيما يتعلق بتغيير الذوق ، إنه شعور الحاضر الذي يأخذ بتلايب

تاريخ الماضي ، الآن يبدو هذا السكون وهذه الظلال المزيفة النابتة في أحواش «بسكرة» كسكون الموت ، قبل أن أعجب بهذا الثبات الذي قد يسمح بالتأمل الروحي ، تبدو لي كل وقائع التاريخ أشبه بقطع قديمة في متحف ، أو نباتات في مرعى ، يساعدني جفافها الظاهر في النسيان ، ذات يوم ، بأنها كانت غنية بالعصارة ، لقد عاشت تحت الشمس . . الآن إذا أردتُ أن أعجب بالتاريخ فيجب أن أتخيله على أنه حاضر ، يجب أن تحركني الوقائع السياسية الكبرى أكثر من الأحاسيس التي يولدها فينا الشعراء ، وبعض صانعي الأحداث . أعدت قراءة ثيوقراط ، وفكرت أن مراعيه الجميلة أشبه بتلك التي أحببتها في بسكرة .

كان تنقيي في العلم يتيقظ كل يوم ويتراكم على ، ويشرى بهنجتي ، لا أستطيع أن أرى مسرحاً إغريقياً ، ولا معبداً بدون أن يبدو لي تجريدي الشكل ، وفي كل عيد قديم تجعلني الأطلال الباقية في مكانها أشعر بالحُزن لأنها ماتت ، فأرتعد من الموت .

هربت إلى هذه الأطلال ، وفضلت آثار الماضي الجميلة على هذه الحداثق التي تسمى بـ « اللاتومي » ، التي يبدو فيها الليمون ذا طعم حمضي أحلى من البرتقال . وتمتد سواحل « سينثيا » المذكورة في أوراق البردي في زرقه النهار ، والتي جعلت العاشق بروزبرن يبكي .

بلغت درجة اختفاء هذا العلم في نفسي حدًا صنعه كبريائي في أول الأمر ، هذه الدراسة التي اعتبرت بمثابة حياتي في أول الأمر لم تبدُ لي أكثر من تقرير جاء من قبيل المصادفة ، ومتناسباً معي ، وبعد أن لمسني جناح الموت فقد كل شيء هنا بريقه ، في حين أصبحت أشياء أخرى أكثر أهمية ،

وهى لم تبد قط هامة ، ولم يعرف أحد أنها موجودة ، إنها كومة مقدسة فوق روحنا من كل المعارف تزرع كعبء ثقیل ، وفى نفس المكان نرى الجسم عارياً ، والوجود الحقیقى مختفياً .

فقد أكتشف هذه الأمور التى أزعمها ، أعنى الوجود الحقیقى للإنسان القديم الذى لم يكن سبق الإنجيل ، من كتب الأجداد ، والآباء . فى البداية حاولت أن أختصرها ، بدت لى آن ذاك - بسبب الأعباء - أكثر إحباطاً وصعوبة الاكتشاف ، وذات قيمة ، منذ ذلك الحين احتقرت وجودى الهامشى ، وعلمت أن المصير مكتوب فى السماء ، وأننا يجب أن نهز هذه الأثقال عنا .

بدأت أقارن نفسى بالأوراق المسوحة ، وتذوقت فرحة العالم الذى يكتشف فى الكتابات المعاصرة كل ما كان مكتوباً فى الماضى من نص قديم جداً أكثر ثراء . تُرى ماذا كان فى هذا النص الخفى ؟ هل يجب أن نمحو النصوص الحاضرة حين يجب أن نقرأه ؟

وبرغم ذلك فلم أكن أكثر هزلاً ومهارة عما كانت عليه معنوياتى فيما قبل ، بل مليئاً بكل الصلابة والعناد اللازمين . هناك فى هذا المكان ما هو أكثر من النقاهاة ، هناك ارتقاء وانتكاس للحياة ، وتدفق الدم الثرى والأكثر سخونة ، والذى عليه أن يلمس أفكارى ، يلمسها الواحدة وراء الأخرى ، وأن يتغلغل فى كل شىء ، ويثير المشاعر ، ويصبغ أكثرها بُعداً عنا ، وأكثرها حساسية وسرية لوجودنا ؛ لأننا نمارسها ضعفاء أم أقوياء ، ونكوّنها حسب القوى التى تشكلها . إذن فلتنمّ ولتضخم قوتها . كل هذه الأفكار لم أمتلكها بعد ، وتبدو هنا زائفة ، فعلاً ، فأنا لا أفكر فى شىء ، ولا أدقق

فى شىء . فكم أخشى ألا تزعج نظرة خاطفة للغاية كل ما يتتابنى من تحوّل
بطيء . علينا أن نترك الزمن بكل سماته المموهة أن يُعاود الظهور . وألاً
نحاول تشكيكه ، وأن أترك مخى جانباً - ليس بدافع الإهمال - ولكن فوق
أرض الراحة الأبدية ، تركت نفسى بشكل غريزى لأشياء بدت لى قدرية .
لقد تركنا سيراكوزة ، ورُحْتُ أجرى فوق الطريق الوعر الذى يربط
«تاورمين» بـ «لامول» ، وأنا أصرخ منادياً على نفسى : كيان جديد ! كيان
جديد !

كان جهدى الأوحد هو ألا أكشف وأخفى - بشكل تلقائى - كل ما أومن
به ، وبما يتعلق بكيانى الأسبق ، وبمعنوياتى الأولى ، بكل الحقارة الممكنة
لعلمى ، وبكل ازدراء لذوقى كعالم . . لقد رفضت أن أرى معبد
«أجريجنته» ، وبعد عدة أيام - وفوق الطريق المؤدى إلى نابولى - لم أتوقف عند
معبد بوستوم ، الذى تحس فيه بحضارة الإغريق ، والذى ضللت فيه قبل
عامين لإله لم أعرف كنهه .

هل يمكن أن أتكلّم عن قوة فريدة ؟ هل يمكن أن أهتم بنفسى وكأننى
كيان كامل ؟ هذا الكمال المجهول الذى أتخيله بطريقة مشوشة ، لم تتحمس
له إرادتى قط إلا من أجل لمسة ، لقد قمت بتوظيف هذه الإرادة فى داخلى
وأنا أحصن جسمى ، وأصبغه باللون البرونزى ، قريباً من سالرينو ،
وعندما تركنا الشاطئء توجهنا إلى « رافيلو » ، وهناك بدا الجو صحواً ،
وبدت الصخور مليئة بالانكماش والمفاجآت ، وأعماق العقيق الغامضة
تساعدنى فى أن أسترّد قوتى ، وبهجتى ، وأن أحقق قفزة للأمام .

بدت « رافيلو » أكثر قرباً من السماء وبعيدة عن الشاطئء ، إنها تطل

على حافة عالية ، تبدو في مواجهة الشاطئ البعيد والمسطح وكأنها واقعة تحت السطوة النورماندية ، وتبدو « بوستوم » وكأنها مدينة ذات أهمية ، كانت تطل على شريط ساحلى ضيق ، كنا نتقابل فيه نحن الغرباء - على ما أعتقد - فى منزل دينى قديم ، تحوّل الآن إلى فندق قائم فى قمة الصخرة ، وشرفاته وحديقته تبدو كأنها مائلة فى السماء الصافية ، وبعد الجدار الملىء بالأغصان لا نرى شيئاً سوى البحر .

يجب أن نقرب من الجدار كى يمكن متابعة المنحدر المزروع الذى يربط «رافيلو» بالساحل بواسطة السلم والممرات . تظهر الجبال فى أعلى «رافيلو» ، وأشجار الزيتون ، وأشجار الخروب الكثيفة ، وتنطلق الأبخرة فى ظلالها . أما أشجار الكستناء فتبدو عالية وكثيفة . هناك نباتات الشمال أكثر انخفاضاً ، ومقابر قريبة من البحر ، إنها مرتبة فى زراعات صغيرة فوق المنحدر ، إنها حدائق مدرجة ، أو هكذا تقريباً ، فى وسطها عمر ضيق ، وفى أطرافها معبر يمكن الدخول إليه بلا أى ضجيج ، كم يمكن للمرء أن يحلم تحت هذا الظل الأخضر ، فالأوراق كثيفة وثقيلة ، ولا يمكن لأى أشعة أن تخترقها ، كأنها نقاط الورنيش الكثيف ، أما الليمون فتنبعث روائحه ، ويبدو فى الظل أبيض أو مائلاً إلى الخضرة . إنها تكاد تلمس باليد ، وتبعث على الانتشاء .

كان الظل كثيفاً ، لم أجروء على أن أتوقف تحته بعد المشى كى ألتقط أنفاسى ، فبرغم أن السلم لم تنهكنى كثيراً ، فإننى رحت أتنهد وأنا أغلق فمى ، وكنت ألهث وأنا أقول لنفسى : سوف أصل إلى هناك بلا تعب ، نعم سأصل إلى هدفى ، وأجد مكافأتى فى كبريائى السعيدة . تنفست طويلاً ، وبعمق شديد ، وبطريقة تبدو لى كأن الهواء يدخل صدرى ليغسله ، أنا أولى العناية لكل جسدى المنضبط تماماً ، ثم أتقدم .

كم أندھش وأنا أحس بصحتي تُسترد سريعاً ، لدرجة أنني اعتقدت أنني كنت أبالغ في حالتي الصحية ، وشككت أنني كنت مريضاً ، وضحكت من دمائي التي بصقتها ، وأسِفْتُ لأن شفائي لم يستغرق سوى القليل من الوقت .

كانت عنايتي بنفسى بالغة الأهمية في البداية ، وأنا أجهل حاجات جسمي ، وتذرعت بالصبر ، وتملكتني مهارة شديدة ، لدرجة أنني رحت أتصرف وكأن الأمر لعبة ، برغم كل الحذر والعناية ، أما الذي جعلني أعانى كثيراً فهو حساسيتي المرضية لأقل تغَيُّر في درجات الحرارة ، فبرغم أن رثتي الآن قد شُفِيَتْ ، فإنني يمكنني أن أغدو عصبياً ، حساساً للمرض ، وأحاول أن أتغلب على كل هذا ، وأن أرى البشرة تصطبغ وتخرقها أشعة الشمس ، والناس الذين يعملون في الحقول يفتحون ستراتهم ، وكأنهم يصبغون بشراتهم مثلي . ذات يوم رحت أخلع ملابسى ، وأخذت أنظر إلى نفسى ، لم تجعلى رؤيتى لجسمى النحيف ولكتفى أستطيع أن أراجع إلى الوراء ، ولكن ملأنى الخجل لجسمى الأبيض ، ولبشرتى التى تلونت ، ورحت أذرف الدمع . وسرعان ما ارتديت ملابسى ، وبدلاً من النزول إلى «امافاليا» مثلما اعتدت أن أفعل ، توجهت إلى صخرة مغطاة بالأعشاب والحشائش ، بعيدة عن العمار ، وعن الطرق ، حيث أعرف أن أحداً لن يرانى ، وهناك بدأت أخلع ملابسى ببطء ، وبدأ الجو مليئاً بالحوية ، لكن الشمس حامية ، رحت أقدم جسمى للهيبة . أجلس ، وأنام ، وأدور ، وأحسست بالأرض الصلبة من تحتى ، تثيرنى حركة الأعشاب المجنونة ، وتحت الرياح كنت أرتعد ، وأهتز لكل هبة ريح ، وبدت سيقانى ضعيفة للغاية ، وتوافد كل وجودى نحو بشرتى .

أقمنا في « رافيلو » خمسة عشر يوماً ، كنت أتوجه فيها كل صباح إلى هذه الصخور من أجل إجراء علاجي ، وأصبح خلع ملابسى التى تغطينى أمراً ممتعاً ورائعاً .

وفي صباح أحد هذه الأيام الأخيرة (كنا في منتصف شهر أبريل) اشتدت جراتى في منحنيات الصخور التى أتكلم عنها ، رأيت نبعا تنساب مياهه كأنه شلال ، وإن كان يبدو ضعيفاً ، لكن تحت الشلال هناك حفرة عميقة تتحرك فيها مياه نقية . لقد جئت هنا ثلاث مرات ، وتوقفت ، وتمددت فوق الحافة ، وقد غمرنى العطش والرغبة ، رحت أتأمل أعماق الصخرة ملياً حيث لا يمكن أن نكتشف أى شائبة ، ولا نبتة عشب واحدة ، أما الشمس فهى لا تكاد تختفى حتى تعود . في هذا اليوم الرابع تقدمت نحو الماء ، وكان عزمى أكثر شدة من أى فترة سابقة ، ودون أدنى تفكير غصت بكاملى في داخله ، لكننى سرعان ما تركت المياه وتمددت فوق العشب تحت الشمس ، هناك حيث تتشابك فروع النعناع المعطر . . رحت أجمعها ، وأمسكت أوراقها ورحت أدعكها بجسمى المبلل الذى يحترق وأنا أنظر إلى نفسى بدون أى خجل ، وبكل فرحة ، لم أر نفسى فقط قوياً ، ولكن يمكننى أن أكون كذلك مليئاً بالتناسق والحسية والجمال .

هكذا أحسست بالسعادة إزاء كل نشاط وكل عمل أقوم به ،
وللتمرينات الطبيعية التي جعلت معنوياتي تتغير . لم يبدُ لي

هذا أكثر من وسيلة للراحة لم تكن كافية لإرضائي .

هناك حدث آخر ، لمست عيونكم الساخرة ، وهو أنني قمت بحلاقة
شعري وأنا في « أماليا » .

كنت قد احتفظت بلحيتي حتى هذا اليوم ، وبشعر حليق تقريباً ، لم
تتبنى الفكرة أنني سأكون أفضل لو قمت بتغيير تصفيف شعري ، وفجأة ،
في أول يوم تعرّيتُ فيه فوق الصخرة ، راحت هذه اللحية تضايقني ، وكأنها
قطعة أخيرة من الملابس لم أستطع أن أتخلص منها ، أحسست كأنها
مصطنعة برغم أنها كانت معقوفة بعناية ، ليس إلى الحد اللازم ، ولكن في
شكل مربع ، يبدو لي أيضاً غير مريح وعثيا . عندما عدت إلى غرفتي في
الفندق ، نظرت إلى المرأة ولم أعجب بنفسي ، كان مظهرى حتى ذلك الحين
أشبه بشخص أجريت عليه بعض التحسينات .

حين نزلت إلى « أماليا » كانت المدينة صغيرة للغاية ، وكان عليّ أن
أتسوق من محل شعبي في الميدان ، إنه يوم السوق . كان المحل مزدحماً ،
وعليّ أن أنتظر طويلاً ، لكنني لم أجد شيئاً ، لا الأمواس الحادة ، ولا فرشاة

الحلاقة الصفرء ، ولا العطور ، ولا أدوات حلاقة . لا يمكن أن أراجع .
أحسست بلحيتى تسقط تحت تأثير المقصين ، وكأننى أخلع ، متاعبى ،
ملأنى الشعور أننى أصبحت أفضل ، ليس من الفرحة ، وإنما من الخوف ،
لم أفكر طويلاً فيما تملكنى من شعور ، فقد انتابنى الخوف الذى بدا لى أنه
يعرى فكرى ، أحسست فجأة أنه شىء مشكوك فيه .

وعلى العكس فقد أطلقت شعرى .

هذا هو شخصى الجديد ، شخص وُلد فى داخله حَدَثٌ مدهش ،
ولكن فيما بعد قلت لنفسى إنه سيكون شخصاً بالغ الأهلية ، عليه أن يحيا ،
وأن ينتظر ، رحت أتأمل - مثلما فعل ديكارت - بطريقة يمكن السير على
هداها ، لدرجة أن مارسلين نفسها قد خُذعت حين شاهدتنى ، ترى هل
تغيرت نظرتى حقاً ، خاصة فى ذلك اليوم الذى ظهرت فيه بلا لحية ، ربما
أقلقتها ملامحى الجديدة ، ولكنها تحببى كثيراً حين ترانى ؛ لذا رحت
أتصرف معها بأفضل ما يكون ، فهى تحرص ألا تزعجنى وهى تختلس
نظراتها ؛ لذا كان على أن أختفى .

وبرغم أن مارسلين كان عليها أن تحب من تتزوجه ، فإن هذا ليس هو
«كيانى الجديد» ، وقد قلت هذا مراراً كى أحرص نفسى على التخفى ، ولم
أكشف لها سوى صورة أكثر ثباتاً ، وأمانة للماضى ، لكنها أصبحت مزيفة
يوماً وراء يوم .

ظلت علاقاتى بمارسلين ثابتة ، ونحن ننتظر ، مهما حدث ، يوماً وراء
آخر . يكللها حب كبير . كان اختفائى (إذا كان علينا أن نسمى حاجة
الجسم للتفكير بهذا الاسم) قد زاد ، أعنى أن هذه اللعبة قد شغلتنى عن
مارسلين بلا توقف ، ربما أن كل هذا الكم من الكذب قد كلفنى إياها ،

ولكننى سرعان ما فهمت أن الأشياء التى تزايدت ، كالكذيات ، ولا شىء آخر عداها لم تكن صعبة الممارسة ، ولكنها أصبحت سريعة ، ومبهجة ، ومن الرقة أن نفعليها وتبدو أموراً عادية ، وأيضاً بالنسبة لكل شىء يبدو فيه الفساد مهزوماً ، بلغت درجة من الإحساس والمتعة فى هذا الاختفاء لم أعرفها من قبل ، مثل لعبة الشموليات المجهولة ، وفى كل يوم رحت أتوغل فى حياة أكثر ثراء وأكثر امتلاءً ، قادتني نحو سعادة كاملة .

كان الطريق من « رافيلو » إلى « سورنته » جميلاً مثلما تمنيت ،
ففى هذا الصباح بدا كل شىء جميلاً فوق الأرض ، من انحدار

الصخرة الحاد إلى انسياب الهواء ، والبساطة ، كل شىء يملؤنى بسحر رائع
للحياة ، ويكفينى إلى درجة أن مجرد نسمة خفيفة من السعادة تبدو وكأنها
تسكن فى داخلى . . تنساب الذكريات والاعتذارات والآمال ومشاعر الخوف
من المستقبل نحو الماضى ، فأنا لم أعرف من الحياة سوى ما يأتى به الحاضر
.. هتفت : « يا لها من فرحة ! وأحسست أن عضلاتى قد استردت
عافيتها .

رحلت فى ساعة مبكرة ، سابقاً مارسيلين التى بدا عليها الهدوء والارتياح
أكثر منى ، ولأن خطواتها تجعلنى أبطىء خطواتى ، فقد راحت تلحقنى
بسيارة فى «بوزيتانو» حيث كان علينا أن نتناول الغداء .

عندما اقتربت من بوزيتانو فوجئت - حين سمعت أصوات تروس - كأنها
تشدو بأغنية غريبة ، لم أر شيئاً فى بادىء الأمر بسبب انحدار الطريق عند
أطراف صخور الشاطئ ، وفجأة برزت عربة على الطريق ، إنها عربة
مارسلين ، كان الحوذى يغنى وهو يمايل رأسه بحركات ظاهرة وهو واقف
يضرب حصانه بوحشية جنونية . يا للبشاعة ! راح يمرق أمامى وكأن ليس
لديه وقت ، ولم يتوقف لندائى . . هرولت ، ولكن العربة ولت الأدبار .

ارتعدت فجأة ، انطلق الحصان ، أرادت مارسلين الهروب ، ولكنها وجدتني قريباً منها ، وما إن رآني الحوذى حتى استقبلني بشتائم بذيئة ، أحسست بالغضب من الرجل ، وعند أول شتمة قفزت عليه وألقيته بعيداً ، ورحت أدور معه فوق الأرض ، ولم أفقد توازني ، بدا مبعوثاً بسقطته وبهذه اللكمة التي لكمتها في وجهه عندما أحسست أنه سيعضني ، ومع ذلك لم أتركه ، وضعت جبهتي فوق صدره ، وحاولت أن أسيطر على ذراعيه ، ونظرت إلى وجهه الذي زادت قبضتي من بشاعته ، راح يبصق ، وسال لعبه ، ونزف وهو يشتم : آه ، أيها المخلوق المرعب ! بدا الخنق أمراً شرعياً ، ولعلّ سوف أفعل ذلك . . على الأقل فقد أحسست أنني قادر أن أفعل ذلك ، وأعتقد أن فكرة وجود الشرطة جعلتني أتوقف .

· وبكل صعوبة ألقيته - وكأنه حقيبة - في العربة .

آه ! يا لها من نظرة ! ويا لها من قبلة تبادلناها ! لم يكن الخطر جسيماً ، ولكن كان يجب أن أكشف عن قوتي كي أحميها ، شعرت أنني يمكن أن أهبها حياتي ، وأن أعطيها كل السعادة . . بدا الحصان جامحاً ، صعدنا إلى السياج معاً ، ونحن في أحسن حال .

في هذه الليلة امتلكت مارسلين .

هل فهمت كيف أقول إنني جديد في مسائل الحب ؟ ربما لهذا طالت ليلة عرسنا حتى هذه الليلة . . لأنه يبدو لي - وفي ذاكرتي الآن - أن هذه هي أول ليلة تحول فيها الحب إلى لذة ومتعة ، وأن ليلة واحدة تكفي لحب كبير ، وطالما أن ذاكرتي تدفعني إلى أن أتذكر هذه الليلة فإن ضحكة انطلقت لحظة انغمست فيها أرواحنا . . لكن أعتقد أن هناك حباً فريداً ، وأن الريح تحاول

- بلا جدوى - أن تتجاوزه ، وأن الجهد الذى يبذل لبعث سعادته على المرء أن يبذله ، وأن لا شيء يحجب السعادة مثل الذكريات السعيدة . آه ! كم أتذكر تلك الليلة !

كان فندقنا خارج المدينة محاطاً بالحدائق والرياض ، وهناك شرفة واسعة لغرفتنا تملؤها الأغصان ، يدخل الفجر من فتحاتها الواسعة ، أتحرك برقة ولطف وأحتضن مارسلين وهى نائمة ، أحس بنفسى أكثر قوة ، أما هى فأكثر رقة وهشاشة ، برغم أن بعض الأفكار الصاخبة تعصف برأسى ، فكرت أنها لم تكذب حين قالت إننى كل شيء فى حياتها ، ثم قلت توّاً لنفسى : ماذا فعلت كى أسعدها ؟ فأنا أتركها دائماً كل يوم ، وهى دائماً تنتظرنى . . ملأت الدموع عينى ، وبلا جدوى رحت أبحث وسط ضعفى السابق عن وسيلة للاعتذار ، ماذا على أن أفعل الآن ؟ ألسْتُ أقوى منها فى هذه اللحظة الآن ؟

لقد هجرت الابتسامة وجنتيها ، وبرغم أنها تزين كل شيء ، فإن الفجر بدا لى حزيناً وشاحباً ، وربما اقتراب النهار جعلنى أحس بالشجن : هل جاء اليوم الذى يجب فيه أن أعتنى بك ؟ كم أنا قلق بالنسبة لك يا مارسلين ؟ رحت أكتب ذلك فى داخلى وأنا أرتعد ، وقد امتلأت بالحب والشفقة والركة ، وطبعتُ بكل سكىنة فوق عينيها المغلقتين ، الأكثر شفافية ، أحلى قبلات الحب .

كانت الأيام التي عشناها في « سورنته » سعيدة وهادئة ، لم أذق قبل ذلك طعم هذه الراحة والسعادة ، ولا أظن أنني سوف

أذوق مثلها فيما بعد ! كنت دائماً على مقربة من مارسيلين ، لم أعد أهتم بنفسى إلا قليلاً ، انشغلت بها ، أو رحت أبحث عن كل وسيلة لإسعادها تلك السعادة التي وفرتها لي في الأيام السابقة حين كنت مُلتزماً الصمت .

أصابتنى الدهشة حين أحسست أن حياتنا تائهة ، كنت أتصور أنني أشعر برضاء تام ، لم أكن أنظر إليها إلا كحالة مؤقتة ، بدا لي أن هذا الإعراض عن الحياة ناتج من أنني أصبحت لا أعطيها الوقت الذي تستحقه ، ولأول مرة تولدت في رغبة للعمل من الفراغ ، خاصة أن صحتي قد تحسنت ، ورحت أتكلم بجدية عن العودة ، وعن الفرحة التي تبدو ظاهرة في مارسيلين ، وأدركت كم كانت تفتقدها منذ أمد طويل .

في تلك الآونة ، بدأت بعض أشياء التاريخ تفقد مذاقها ، وكما قلت لكم ، فإنه منذ إصابتي بالمرض ، فإن المعرفة المجردة والمحايدة للماضى بدت لي بلا جدوى ، وفكرت أنني يمكن أن أنشغل بأبحاث أيولوجيا ، وأن أحدد مثلاً مدى تأثير الغوطيين على تفتيت اللغة اللاتينية ، وأن أتجاهل وأهمل وجوه كل من تيودريك وكاسيدور ، وأما لسونت ومشاعرهم العظيمة حتى لا ألهث في البحث عن علامات محددة ، من حيواتهم . الآن

فإن هذه العلامات من الفقه الكامل لم تكن بالنسبة لى سوى أفضل وسيلة لهذه الموهبة المتوحشة المتعاطمة ، والتي تبدو نبيلة ، صممت أن أنشغل بهذا العصر القديم ، وأن أحدد إحدى الفترات الزمنية فى السنوات الأخيرة من الإمبراطورية الغوطية ، وأن أضع تصوراً عن المسرح .

ولكننى أعترف أن وجه الملك الشاب أتارفيك قد جذبنى كثيراً ، تخيلت هذا الطفل ذا الخمسة عشر ربيعاً وقد انغمس تماماً مع الغوطيين ، وهو يتمرد ضد أمه « أما لسونت » ثم يقاوم ضد تربيته اللاتينية ، ويلقى عن كاهله بالثقافة كحصان يحمل سرجه كاملاً ، ويفضل المجتمع الغوطى الذونى عن العجوز كاسيدور البالغ الحكمة ، والذي تذوق لبضع سنوات - مع قسوة من هم فى سنه - عنف الحياة ولذة الحرمان ، كى يموت فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد أفسد كل شىء بعد أن أسكرته الغواية . وجدت فى هذه القفزة المأساوية حالة أكثر وحشية وحسية ، شيئاً مما كانت مارسيلين تسميه وهى تبتسم بـ « قضيتى » . كنت أبحث عن توافق أطبقه على روحى حتى لا أشغل جسدى . ومن خلال موت « أما لريك » المرعب رحت أقنع نفسى أننى يجب أن أقرأ ذلك على أنه مجرد درس من الدروس .

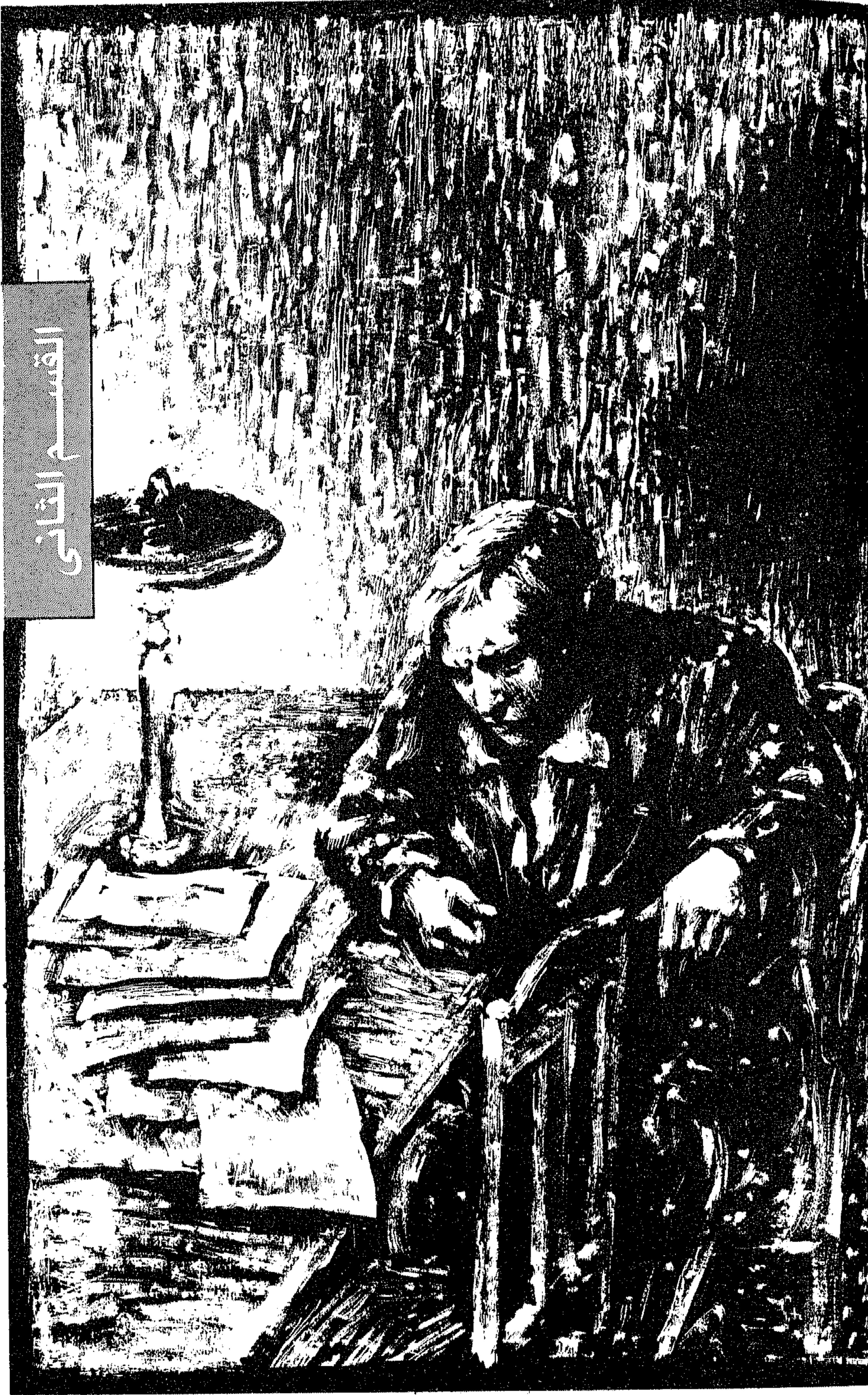
بعد « رافن » رحنا فى جولة لمدة خمسة عشر يوماً ، رأينا روما وفلورنسا على عجلة ، ثم تركنا مدينة البندقية وفيرونا ، وفوجئنا بأن الرحلة انتهت ، وأنه ليس أمامنا سوى أن نتوقف فى باريس . وعهدت فى نفسى لذة جديدة ، هى الكلام عن المستقبل مع مارسيلين ، وبقينا على غير يقين فيما يتعلق بموضوع وظيفة الصيف . أصابنا الملل من السفر ، وقررنا ألا نرحل . تمنيت أن تتاح لدراستى الوقت الطويل والهدوء العميق ، وفكرنا فى امتلاك قطعة أرض بين « ليزيو » و « كوبرى القس » ، فى مقاطعة نورماندى الخضراء ، قطعة أرض كانت تملكها أمى فيما قبل ، قضيت فيها معها بعض

فصول الصيد إبان طفولتي ، كان أبي قد عهد لأحد الحرس برعايتها والسهر عليها ، لقد غدا رجلاً عجوزاً ، أما الأرض فتبدو الآن وكأنها تخصه أكثر ، فهو يرسل لنا ريع الحقل بشكل منتظم ، هناك منزل كبير ومريح في حديقة مليئة بالمياه المتدفقة تركت في نفسي الذكريات السعيدة تسمى « لامورنيير » ، وبدأت لي أنها قد تكون مسكناً مناسباً .

كنت قد خصصت الشتاء القادم ، لقضائه في روما من أجل العمل وليس للسفر ، ولكن هذا المشروع الأخير سرعان ما انقلب ، ففي بريدنا الهام الذي نتظر وصوله منذ وقت طويل ، علمنا من رسالة مفاجئة أنه يوجد مقعد شاغر في الكوليج دو فرانس ، وأن اسمي قد رشح لمرات عديدة ، لم يكن هذا بذلك سوى رجاء ، ولكن من يترك لي في المستقبل حرية التصرف . أشار لي الصديق الذي أخبر بالأمر ، وددت أن أوافق ، فهناك بعض الإجراءات البسيطة التي علينا اتخاذها . وراح يضغط على بقوة . أن أقبل ، ترددت وأنا أتصور العبودية تقيدني ، ثم فكرت أنه من المهم أن أعرض أعمالي في محاضرة عن كاسيدور ، وأحسست بالسعادة أنني سأبلغ قراري إلى مارسيلين ، خاصة بعد أن اتخذته بشكل نهائي .

كان أبي قد عقد العديد من الصلات التي استكملتها بنفسى من خلال المراسلات ، جعلتني هذه الطريقة أمارس البحث الذي أريده في « رافن » وفي أماكن أخرى . لم أكن أفكر إلا في العمل ، وكانت مارسيلين توليه ألف عناية وألف اهتمام .

بدأت سعادتنا كبيرة في نهاية هذه الرحلة ، وهادئة لدرجة لا أستطيع أن أحكيها ، فأفضل الإبداع الإنساني قد تم من خلال المعاناة الحقيقية . كيف ستكون السعادة ؟ ترى من يصنعها ؟ ومن يهدمها ؟ ومن يحكى عنها ؟ أرد عليكم وأقول : إننى الذى صنعت هذه السعادة .



القصة الأولى

إلى «لامورنيير» في الأيام الأولى من شهر يوليو ، لم نتوقف في باريس إلا للضرورة ومن أجل التموين ، وللقيام ببعض

الزيارات القليلة .

أخبرتكم أن «لامورنيير» تقع بين «ليزيو» و«كوبري القس» في البلاد الأكثر ظلالاً، وأكثر البلاد التي عُرفت تشبّعاً بالماء ، إنها مليئة بالتعاريج والمنحنيات الضيقة التي تؤدي إلى ساحل أوج المتسع الذي يطل مباشرة على البحر ، وعلى مسافة قريبة ، فإن الغابات الكثيفة يملؤها الغموض . هناك يوجد بعض الحقول ، وعلى مقربة منها ، توجد المراعى الكثيفة التي يبدو فيها العشب وكأنه ينمو منذ سنتين ، وأشجار تفاح عديدة ، وعند غروب الشمس تصنع الظلال التي تمر من بين فروع الأشجار أبراجها ، وفي كل حفرة توجد المياه والبرك ، والظمى حيث نسمع النهر وهو لا يكف عن التدفق .

آه ! كم أعرف المنزل عن ظهر قلب ! أسقفه الزرقاء ، وجدران المشيدة من الطوب والحجارة والخنادق ، وانعكاسات الشمس فوق المياه الراكدة . . إنه بيت قديم سكناً فيه قرابة اثني عشر عاماً ، كان لمارسلين ثلاثة عشر خادماً يساعدونها ، فضلاً عني ، لقد نجحنا أن نشكل حزباً ، أما جارسنا

العجوز الذى يسمى «بوكاج» فقد راح يبذل كل ما لديه من أجل تجهيز بعض الغرف . لقد استيقظ أثاث الغرفة من نومه بعد عشرين عاماً من الرقاد، بقى كل شىء هناك كما هو ماثل فى ذاكرتى، كانت النقوش لاتزال مهدمة ، أما الغرف فلم يسكنها أحد قط . وكأنها مستعدة لاستقبالنا . راح بوكاج يملأ كل الزهريات بالورود التى وجدها أمامه ، وراح يعزق ويجرف الحوش الكبير والحديقة القريبة من الممرات ، لقد عاد لنا البيت الكبير أخيراً، وتسلى إليه الشعاع الأخير من الشمس ، أما الوادى فقد ملأه الضباب الذى يبدو كأنه يطير حين يبلغ النهر . وقبل أن أصل بقليل تعرفت على رائحة العشب ، وعندما قمت بدورة حول المنزل سمعت زقزقات البلابل ، وانتفض الممر وكأنه ينتظرنى ويعرفنى ، ويريد أن يمنع اقترابى منها .

وخلال بضعة أيام ، أصبح المنزل أكثر ملاءمة ، وأصبح فى إمكانى أن أبدأ العمل ، فرحت أسمع وأتذكر كل الماضى ، ثم رحت أحسه بمشاعر جديدة ، وقد حدثتنى بعد وصولنا بأسبوع أنها حامل .

بدا لى منذ تلك الآونة أن على أن أعتنى بها من جديد ، وأن لها الحق فى المزيد من الحنان ، على الأقل فى الفترة الأولى التى أعقبت تصريحها ، حيث رحت أقرب منها كل ساعات النهار ، . كنا نجلس على مقربة من الغابة فوق المقعد الذى كنت أجلس عليه سابقاً مع أمى ، هناك تتابنا الرغبة فى كل لحظة ، تجرى الساعات بسرعة ، لم ترتبط بذاكرتى أى غريزة فى هذه الفترة ، ولم أحتفظ منها بأقل قدر من الذكرى ، ولكن برغم أن كل شىء ينغمس فى ، فإن الأمور قد تشكلت فى شكل واحد ، حيث يندمج المساء

بالصباح بلا فاصل ، وترتبط الأيام ببعضها البعض بدون إحداث أى مفاجأة .

استعدت قدرتى على العمل ببطء ، وبروح هادئة ، ساكنة ، واثقاً فى قوتها ، متطلعاً نحو المستقبل بكل ثقة ، وإرادة قوية ، كأنى أسمع نصيحة تنبعث من هذه الأرض البسيطة .

رحت أفكر أن هذه الأرض التى تنمو فيها كل الفواكه والعشب الكثيف قد تركت أثرها علىّ ، وهو أثر ممتاز ، ورحت أتأمل المستقبل الهادى الذى يتمثل فى هذه المراعى الوفيرة ، وأشجار التفاح التى تطرح نباتات من أفرعها المدلاة فوق التلال التى أثمرت فى هذا الصيف محصولاً رائعاً ، رحى أتخيل ، ترى أى تلك الأفرع سوف يمتلىء بالفواكه التى تنمو فوق زرعها من هذا الرخاء المبهج ، وهذه الزراعات المزدهرة ؟ هناك إيقاع لحنى متناسق ، ليس فجائياً ولكن وطيداً ، إيقاع متناسق ، جمال إنسانى وطبيعى ، لانعرف ماذا يعجبنا ، يختلط مع الخصوبة المتفجرة للطبيعة الحرة ، وبمعرفة الإنسان الذى ينظمها . رحى أتساءل : ترى ماذا تكون هذه المعرفة ؟ وهل هناك إمكانية لإنقاذها ؟ ماذا ستكون الدفعة الموحشة لهذه العصابة الفائضة من مكنون الذكاء الذى يسدها ويصحبها وهو يضحك ؟ تركت نفسى أحلم بالأرض التى تقوم فيها كل القوى بكل ما هو لازم ، وتدبر كل المصاريف الممكنة وكل التغييرات المتاحة . وأصبح الأمر حساساً ، فهأنذا أطبق حلم حياتى ، أشيد علم أخلاق يصبح عملاً مفيداً للإنسان من خلال مكنونه وذكائه .

أين أغوص فيه ؟ وأين أختبئ من متاعب الأمس ؟ بدا لى أننى هادىء ، وأنها لم تكن هناك قط ؛ لذا تدفق حبى الذى يكشفها جميعاً .

فى تلك الآونة راح العجوز بوكاج يصنع الحماس من حولنا ، كان يدير كل شىء ، يرقب وينصح ، ونحس بحاجته أن يبدو كشخص يجب عدم مناقشته ، وحتى لانجبره فقد كان عليه أن نختبر حساباته ونسمع كل تفسيراته اللامتناهية ، لم يكن هذا يكفيه ، كان على أن أصبحه فوق الأرض الزراعية أسمع أحكامه المثالية ، وخطبه المستمرة ، وأرى الرضاء التام يلفه وخلال فترة قصيرة من الزمن راح يغىظنى ، فقد أصبح متعجلاً شيئاً فشيئاً ، بدا لى هذا أمراً جيداً من أجلى ، عندما يحدث شىء غير عادى فإنه يعطى علاقتنا معاً سمة مختلفة ، فقد أعلن بوكاج ذات مساء أنه ينتظر وصول ابنه شارل فى صباح اليوم التالى . هتفت بصوت ذى نبرة مختلفة : آه ! فحتى تلك الفترة لم أكن أعرف الكثير من مشاعر الأطفال حتى أفهم بوكاج ، ثم رأيت أن اختلافنا قد مسه ، وأنه كان ينتظر منى بعض دلائل الاهتمام والدهشة سألته :

- أين هو الآن ؟

رد بوكاج : فى مزرعة نموذجية ، قرية من البنسيون .

أكملت : لعله الآن قد اقترب من ..

رحت أخن من هذا الابن الذى لم أكن أعلم بوجوده حتى تلك اللحظة ، وتكلمت ببطء كى أترك له فرصة مقاطعتى ، رد بوكاج :

- سبعة عشر عاماً مضت ، لم يكن عمره أكبر من أربع سنوات عندما ماتت السيدة أمك . آه إنه شاب كبير الآن ، وقریباً سوف يصبح أطول من أبيه . . « وعلق بوكاج ذات مرة أن لاشىء يمكن أن يوقفه بعد أن بدا أننى أحسست بالملل .

في صباح اليوم التالي لم أفكر إلا في هذا الأمر ، وعندما جاء شارل في نهاية اليوم ، راح يلقي بتحيته لمارسلين ولي . بدا شاباً جميلاً ، موفور الصحة ، ومرن الجسم ، ووسياً وهو بملابسه المدنية الأنيقة التي ارتداها على شرفنا ، ولم يستطع أن يجعل منها شيئاً سخيلاً ، أضاف خجله على ملامحه بعض الحمرة الطبيعية . بدا في الخامسة عشرة من عمره ، اكتست نظراته بملامح طفولية ، راح يتكلم بسلاسة بدون أن يحس بأي خجل ، وعلى عكس أبيه ، لم يكن يتكلم لمجرد الكلام ، لا أذكر في أي موضوع تناقشنا في الأمسية الأولى ، انشغلت بالنظر إليه ، لم أجد شيئاً أقوله ، وتركت مارسلين تتحدث إليه ، ولكن في اليوم التالي وللمرة الأولى لم أنتظر أن يجيء العجوز كي يأخذني إلى المزرعة ، حيث عرفت أن الأعمال قد بدأت .

كان الأمر يتعلق بإصلاح بركة ، إنها البركة الكبيرة التي كانت تسرب المياه ، عرفنا مكان التسرب من أجل أن نوقفه بالأسمنت ، يجب أن يبدأ الأمر بتفريغ البركة من المياه ، لم نفعل هذا منذ خمسة عشر عاماً ، هجرتها أسماك «السبوط» و«الكمة» ، وتضخم بعضها في الأعماق ، أردت أن أجمعها في مياه الخندق وأن أعطيها للعمال مما أضاف شيئاً من متعة الصيد إلى العمل ، معلناً عن إعادة الحياة إلى المزرعة ، وسرعان ما جاء بعض أطفال الضواحي واختلطوا بالعمال ، أما مارسلين فقد تأخرت عن الانضمام إلينا .

انخفض منسوب المياه قبل فترة طويلة من وصولي ، كان أحياناً يعلو فجأة فوق السطح فتظهر الأسماك السمرء الشفافة في وسط المستنقع ، ويقف الأطفال الموحلين وهم يلتقطون الأسماك الصغيرة ثم يلقيونها في جرادل مليئة بالمياه النقية في مياه البركة ، وما تلبث حركة الأسماك أن تعكرها وتصبح بين لحظة وأخرى كثفة ومعتمة . زادت الأسماك هناك ، ولو وضعت يديك

مصادفة فإنها ستمتلىء بالأسماك ، أحسست بالأسف أن مارسلين قد انتظرت ، وقررت أن أبحث عنها عندما انطلقت التهليلات معلنة عن ظهور سمك الأنفلس ، لم ينجح أحد في الإمساك بإحداها ، فهي ما تلبث أن تنزلق بين الأصابع ، لم يتمكن « شارل » من الإمساك بها ، وكان يقف قريباً من أبيه ، فجأة خلع جوربه وحذاءه ووضع سترته جانباً ، وشمر بنطاله عالياً وأكمام قميصه ، وانغمس في الطين المتحرك ، ولتوى رحت أشجعه .

صحت : « حسناً يا شارل ، هل عدت بالأمس ؟ » .

لم يرد ، راح ينظر إلى وهو يضحك ، وقد انشغل تماماً بصيده ، ناديته كي يساعده في أن أحاصر إحدى السمكات ، وتماسكت أيادينا من أجل الإمساك بها ، ثم رحنا نمسك واحدة أخرى . ملأ الوحل وجوهنا ، وأحياناً كنا نفوص فجأة في الماء حتى الركب ، فنبتل تماماً ، ورحنا نتبادل بعض الصيحات أثناء اللعب ، وفي آخر النهار لاحظت أنني رفعت الكلفة عن شارل . بدون أن أعرف متى بدأ هذا الحادث المشترك الذي علم كل منا أنه لا يمكن أن نتحدث طويلاً . لم تكن مارسلين قد جاءت ، ويبدو أنها لن تجيء ، ولم أحس بالأسف لغيابها ، بدا لي أن حضورها يمكن أن يفسد متعتنا قليلاً .

في صباح اليوم التالي خرجت لملاقاة شارل في المزرعة ، ثم توجهنا معاً نحو الغابة .

اندهشت وأنا الذي لا أعرف أرضي جيداً وأشعر بالقلق لأنني لا أعرفها ، ولأن شارل يعرفها أفضل ، خاصة المنتجات الزراعية ، راح يعلمني

ما سبق أن تعلمته من ستة مزارعين ، وأخبرني أنني يمكن أن أكسب من ستة إلى ثمانية عشر ألف فرانك من إنتاج المزرعة ، وأننى يمكن أن أكسب النصف لو قمت بإصلاح المزرعة من جميع النواحي . ثم ابتسم وهو يفحص الزراعات ، مما جعلنى أتشكك فى أن أرضى يمكن أن تصبح ممتازة أكثر مما كنت أعتقد ، وأننى يمكن أن أولى بها إلى بوكاج . فالتحت شارل فى هذا الموضوع ، وبدأ على هذا الطفل العمل أنه يعمل على تسليتى بذكائه ، فقد رحنا ننتزه يوماً وراء يوم ، كانت ممتلكاتى واسعة ، وعندما نفتش كافة الجوانب نبدأ بأكثرها تقليدية . لم يُخفِ شارل عنى مشورته عند رؤية بعض الحقول مزروعة بشكل سيىء .

فهنالك مساحات استولت عليها أعشاب القرنيات ، والأشواك ، والحشائش الجافة . كان يعرف كيف يجعلنى أشاركه كراهية هذه الأرض ، وأن أحلم معه بزراعة أفضل .

قلت له : لكننى أعانى من الأشخاص المدّعين ، هل المزارع الحقيقى موجود ؟ ربما أن إنتاج المزرعة لايفى بثمرن المنتجات الحقلية .

أحس شارل بالغضب ، وقال : لو سمحت لى أن أرد ، فأنت لاتعرف شيئاً - ابتسمت - ولا تهتم بالعائد ، ألم تلاحظ أن العائد قد قل ؟ أرضك غير مزروعة جيداً ، إنها تفقد قيمتها ببطء .

- لو تمت زراعتها بشكل أفضل فإننى أشك أن المزارع لن يستغلها ، أعرف أنه يمكن أن يحصدها كما يجب أن يكون الحصاد .

أكمل شارل : أنت لاتدخل الأيدى العاملة فى الحساب ، فهذه الأرض

بعيدة أحياناً عن المزارع ، وعند زراعتها لن تدر شيئاً ، أو هكذا تقريباً ، ولكنها على الأقل لن تبور .

استمر الحوار لمدة ساعة ونحن نخترق الحقول وبدأ لنا أننا نكرر نفس الشيء ، رحت أستمع إليه كل يوم ، وقلت له يوماً وقد نفذ صبري :

- على كُلِّ ، فهذا يرجع لأبيك .

أصابته الحمرة شارل قليلاً ، وقال :

- أباي رجل عجوز ، وعليه أن يسهر على الناحية الجمالية ، فيهتم بالمباني ، والقيام بأعمال المزرعة على أحسن واجب ، وليست مهمته الإصلاح

أكملت : أى إصلاح تود ؟

تهرب من الإجابة زاعماً أنه لايعرف شيئاً . وتحت إلحاحي الشديد رحت أشرح له وأنا أضيف :

- انضم إلى المزارع كل الأرض التي أهملت زراعتها ، فإذا ترك الزَّرَّاعُ جزءاً من أرضهم بوراً فإن هذا دليل أن عليهم أن يدفعوا لك الكثير لإصلاحها ، أو يمكنهم أن يزعموا أشياء كثيرة ، فيروحووا ينقصون ثمن المنتجات الزراعية ، الناس كسالى في هذا البلد .

كانت هناك ست مزارع استعدها بإرادتي ، وتقع فوق التل الذي يطل على «لامورنيير» ، كان اسمها «لافالترى» ، لم يبد المزارع الذي يتولاها شخصاً جذاباً عندما تحدثت معه ، وقريباً من «لامورنيير» هناك مزرعة تسمى «مزرعة العقد» أجرة بوكاج نصفها بطريقة المشاركة مستغلاً غياب المالك ،

وملكيته، لجزء من الماشية . الآن وُلِدَ التحدى ، وبدأت أشك في ذمة بوكاج نفسه ، وأنه قد خدعنى ، أو على الأقل أنه قد ترك البعض يخدعوننى ، حقاً إنه احتفظ لى بأسطبل وزريبة ، لكن بدا لى أنها لم تخصص إلا للمزارعين لكى يطعموا أبقارهم وجيادهم بالقرطم الذى أملكه ، وعلفى . تناهت إلى مسامعى أخبار عديدة أن بوكاج - من وقت لآخر - كان يعطينى الإيحاء أنها قد نفقت ، أو ماتت أو مريضة ، وقد ارتضيت بكل هذا، يكفى أن تسقط إحدى الأبقار مريضة كى تصبح بقرتى ، لم أفكر فى أن ذلك يمكن أن يكون حقيقة ، فإذا تحسنت إحدى الأبقار بعيداً فهى بقرة المزارع ، هنا بدأت بعض تعليقات شارل تفلت منه ، وكشف بعض الملاحظات الشخصية لى ، وسرعان ما استيقظ ضميرى .

راحت مارسلين تضع كل شىء فى الحسبان ، برغم أنى حذرتها أن تفعل ذلك ، لكنها لم ترتكب أى خطأ ، أفلتت منها مسألة عدم أمانة بوكاج ، ماذا نفعل ؟ هل نطرده ؟ رحت أتدبر الأمر بغضب وقررت أن أرقب الحيوانات وألاً أتركها بعيدة عن ناظرى .

كان لدى أربعة جياد وعشر بقرات ، وهناك ما يمكن تسميته «مُهر» برغم أنه كان هناك منذ ثلاث سنوات ولم نهتم بالاعتناء به ، بدأت أهتم به فعلاً عندما بدا لى ذات يوم أنه شرس للغاية ، وأنه لايمكن أن يكون مفيداً لنا ، ومن الأفضل أن أتخلص منه ، وحتى لايتسرب إلى الشك فقد كسر مقدمة عربة صغيرة ، ولوَّث العراقيب بالدماء .

رحت أحتفظ بهدوئى فى ذلك اليوم ، وما أثارنى هو اهتمام بوكاج ، لاحظت أن به ضعفاً وسوء نية ، فالخطأ هو أن يحس الخدم أن لا أحد يوجههم .

خرجت إلى الحوش لأرى المهر ، ما إن سمعنى حتى اقترب ، راح الخادم الذى يضربه يداعبه ، وتصرفت كأننى لم ألحظ شيئاً ، لم أكن أعرف الكثير عن الجياد ، ولكن هذا المهر بدا لى جميلاً ، ذا شكل جذاب ، وتشع الحيوية من عينيه ، وتبدو خصلته وذيله ذَوَاتى لون أشقر . تأكدت أنه لم يُجرح ، وبلَّغْتُ أنهم قد ضمدوا جراحه ، ولم أنطق بكلمة واحدة .

وفى المساء ، ما إن رأيت شارل حتى حاولت أن أعرف رأيه فى «المهر» فقال لى :

- أعتقد أنه رقيق ، ولكنهم لا يعرفون معاملته ، وسوف يدفعونك إلى أن تفقد أعصابك !

- كيف تزعم ذلك ؟

أجاب : ألا يريد السيد أن يجعلنى مسئولاً عنه ثمانية أيام ؟

- ماذا ستفعل به ؟

- سوف ترى .

فى صباح اليوم التالى سحب شارل «المهر» فى ركن من المرعى تتكشف فيه الأشجار ، ويحيط به النهر ، فى حين رحت أرافق مارسلين . بدا أكثر حيوية ، ربط شارل «المهر» بحبل طوله عدة أمتار فى وتد مثبت فى الأرض . بدا المهر عصبيًا وغاضبًا ، وراح يضرب فى الهواء ، ثم برك ، وقد أصابه التعب ، ثم استدار بطريقة بالغة الهدوء ، كان خفيه يبدو محببًا بكل ما به من خفة ، ويبدو للعين جذاباً وكأنه يرقص . وقف شارل فى منتصف الدائرة يتجنب فى كل دورة أى قفزة مفاجئة ، ويروح يهدئه بكلمة ، ويمسك سوطاً فى يده لم يستخدمه ، بدا كل شىء طبيعياً فى حركاته وشبابه

وبهفته ، مما أعطى هذا العمل مظهراً يبعث على الفرحة . فجأة ، لم أعرف كيف امتطى الحيوان ، كان يعرف كيف يبطيء حركاته ، ثم يتوقف ، داعبه خفيفاً ، ثم رأيت فوق المهر ، والآن يلمس شعره ضاحكاً ويطيل مداعبته ، ظل المهر مركوباً لحظة ، بعد أن استعاد خيبه الطبيعي ، بدا جميلاً ومرناً . مثلما أراد شارل . قلت له :

- بضعة أيام من التدريب ولن يضايقه السرج . وبعد أسبوعين سوف تجرؤ مارسلين على أن تركبه ، سيكون رقيقاً كالحمل .

رد : «حقاً» . وبعد أيام استسلم الحصان للمداعبة ، وتصرف بدون تحدٍ ، وركبته مارسلين عندما كان عليها أن تجتاز هذا الاختبار ، ثم سمعت شارل يقول :

- يجب أن يجرب السيد .

هذا هو ما لم أحاول أن أفعله ، ولكن شارل اقترح أن أسرجه من أجله ، أو أى حيوان آخر فى المزرعة ، وكانت صحبتته تجعلنى أشعر بالمتعة .

كم أنا مُدان لأمى ، إنها جعلتنى أروض الخيل أثناء شبابى الأول ، لقد أفادتني هذه الذكرى البعيدة من الدروس الأولى ، لم أشعر بالدهشة لجلوسى فوق السرج ، وخلال لحظات قليلة لم أعد أخشى شيئاً ، أحسست بأننى على راحتى ، وكان الحصان الذى يركبه شارل أكثر ثقلاً ، وبلا أصل ، ولكن رؤيته لم تكن تسر ، خاصة أن شارل كان يمتطيه بشكل جيد . اعتدنا أن نخرج قليلاً كل يوم ، وكنا نفضل أن نخرج فى الصباح إلى البرارى الواسعة الوردية اللون حتى نصل إلى أطراف الغابة ، ثم نجتاز الممر المائى ونتبلل . يفتح الأفق شيئاً فشيئاً ، إنه وادى «أوج» الواسع ، تصورهناه

البحر من بعيد ، وقفنا لحظة بدون أن ننزل ، هناك ولدت الشمس ملونة ، وأشرقت ، ثم نثرت الضباب . استأنفنا الرحيل في خطأ طويلة ، إلى أن بلغنا المزرعة حيث العمل يكاد يبدأ ، أحسننا بالفرحة الممزوجة بالفخر ، فقد سبقنا العمال ، ثم تجاوزناهم ، وعدتُ إلى «لامورنيير» في اللحظة التي استيقظت فيها مارسلين .

عدتُ ثَملاً من الهواء ، مذهولاً من إيقاع الأشياء ، استرخت الأعضاء قليلاً من تأثير الماء ، في حين كان الأمل لا يزال مليئاً بالصحة والشهية والطزاجة . بدت مارسلين كأنها تود أن تشجع خيالي ، جلست إلى جوار السرير تنتظرني ، وانبعثت رائحة الأوراق المنداة التي تعجبها ، وراحت تسمعي أحكي لها عن السباق ، وعن صحوة الحقول ، وبداية العمل . . . انتابتها فرحة عارمة ، وبدت كأنها تجعلني أشعر بالحياة ، وكلما غمرتها الفرحة رجت أفرط في الحكايات ، فتطول فرحتنا ونزهاتنا ، مما جعلني في بعض الأحيان أعود عند منتصف النهار .

في بعض الأحيان كنت أحتفظ لنفسى - على أحسن ما يكون - بنهاية النهار والمساء كي أقوم بدراستي ، وليتقدم عملي . كنت راضياً ، ولم أعتبر هذا عملاً مستحيلاً ، وأنى يجب أن أستجمع كل دروسي في جزء واحد كأمر طبيعي كي تنتظم حياتي ، وأنا أنظم كل شيء ، لقد استحوذ عليَّ علم أخلاق الغُوطيين ، وانشغلت بدراستي تماماً ، واهتممت أن أختزل كل ما يمكن أن نذكره وأنا أتساءل : ترى إلى أي مدى يمكن لهذه الحكمة أو الجنون أن يذهب بي ؟

ود اثنان من المزارعين ، الذين يستمر إيجارهم حتى عيد الميلاد ، أن يجددا الإيجار عندما قابلاني ، كان الأمر يتوقف على التوقيع ، تقول الورقة

«وعد بالإيجار» . وبكل ثقة من شارل ، وتأثراً بأحاديثه اليومية ، رحتُ أنتظر المزارعين اللذين بدّوا قوين أكثر من أى مزارعين . طلبا في البداية تخفيض الإيجار ، وبدت عليهما الدهشة عندما أخبرتهما أننى قرأت «الوعد» الذى قرأته ، وقلت إننى لا أرفض فقط تخفيض ثمن المنتجات الحقلية ، ولكن أيضاً أن أُخفض بعض قطع الأرض التى أحتفظ بها ولم يستخدماها . تظاهرا في البداية بالضحك ، ورحت أمزح ، ترى ماذا سأفعل بهذه الأرض؟ إنها لاتساوى شيئاً ، وطالما أنها لاتساوى شيئاً فإننا لن نفعل بها شيئاً . . . عانداً فعاندتُ من ناحيتى ، تصورا أنها يخيفاننى وهما يهدداننى بالرحيل ، وعندما تخيلت أننى لم أسمع سوى هذه الكلمة قلت لهما :
_ «هه ! ارحلا إذا أردتما ! ولن أعيدكما» .

وأمسكت «وعد الإيجار» ومزقته أمامهما .

بقيت هكذا . ماسكاً أكثر من مائة هكتار بين ذراعى ، لقد وكلت إدارتها إلى بوكاج منذ بعض الوقت ، معتقداً أنها سوف تُدار بشكل غير مباشر من شارل ، وتصورت أننى يمكن أن أهتم بها من ناحية أخرى ، ولم أفكر طويلاً في هذا الأمر ، الخطر هو أن العناد أمسك بى ، كأن المزارعين لن يُخلوا المكان إلا في عيد الميلاد . وأخبرت شارل بالأمر ، وأسعدتنى فرحته ، لم يستطع أن يخفيها ، مما جعلنى أحس كثيراً بشبابه وراح الوقت يتحرك ، كنا في هذه الفترة من السنة حيث تترك المحاصيل بدون جنى في الحقول من أجل الحرثة الأولى ، ومن خلال اتفاق ما ، فإن أعمال المزارع تتم وتتقاطع فيما بينها ، حيث تترك القطعة تلو القطعة ، خاصة التى تنمو فيها الأعشاب ، رحت أشك في كراهية المزارعين البغيضة ، فهم يعجبهم أن

يتظاهروا بسلوك مثالى أمام ناظرى (لم أعرف الهدف من ذلك إلا فيما بعد)
لقد أنك الرجل الأرض الزراعية التى استأجرها والتى ستعود إلى قريباً .
الآن اقترب الخريف ، ويجب أن أستأجر أكثر من رجل كى أسرع من
عمليات الحرث ، والبذر . اشترينا نوارج ، وقلابات ، ومحارث ، ورُحّت
أُتجول فوق جوادى ، أرقب وأدير الأعمال ، وأنا أحس بالمتعة أننى أمره ،
وأسيطر :

فى تلك الآونة ، كان المزارعون فى المراعى المجاورة يجمعون التفاح
المتساقط ، ويدورون داخل الأحراش الكثيفة التى بدت مهمة لسنوات
عديدة ، لم يكن هناك عدد يكفى من العمال ، جاءوا من القرى المجاورة
للعمل كأجراء لمدة ثمانية أيام ، كنا نتسلى أحياناً ، أنا وشارل فنساعدهم ،
يهر بعضهم الأفرع لإسقاط الثمار الناضجة ، كما يتم جمع الثمار الساقطة
تحت الأشجار ، إنها دائماً مضروبة فى الأعشاب العالية ، التى لايمكن أن
نمشى فيها بدون أن ندوس عليها . كانت الرائحة المنبعثة من المرعى نفاذة
العبق ، ورقيقة ، وتختلط برائحة المحارث .

تقدم بنا الخريف ، وبدت الأيام الأخيرة أكثر جمالاً وإنعاشاً وصفاءً ،
كان الجو أحياناً يبدو قرمزياً ويصبغ الأفق بزرقة ، مما يجعل من النزهة سفراً ،
بدا البلد كبيراً ، وأحياناً على العكس ، تجعل شفافية الجو الأفق أكثر قريباً ،
فنكاد نبلغه بضربة جناح ، فلا أعرف أىّ الاثنين يملأ المكان ، استمر ذلك
حتى كاد العمل ينتهى ، أقول ذلك لأننى كنت أشرد قليلاً . أما الوقت
الذى لا أمرّ فيه على المزرعة فإننى أقضيه مع مارسلين ، حيث نخرج معاً إلى
الحدائق ، نمشى ببطء ، وتضع رأسها على ذراعى خين نجلس فوق أحد
المقاعد ، وهناك يبدو العقيق مليئاً بالضوء فى المساء . كانت لديها طريقتهما

الرقيقة للاتكاء على كتفى ، ونبقى هكذا حتى المساء ، نحس بالنهار فى داخلنا بدون أن نتحرك أو نتكلم . كم عرفنا فى الصمت إلى أى حد وصل حبنا ! كان حب مارسلين أقوى من أن تعبر عنه بالكلمات ، وكم كنت أعانى أحياناً من هذا الحب ، وكأنه نفخة ريح قوية تهب فوق مياه آسنه ، فأقل شعور يظهر فوق جبهتها يجعلنى أقرأ الغموض عليها ، إنها تسمع حياة جديدة تئن ، تعلقت بها وكأننى فى مياه عميقة نقية ، بعيدة لدرجة نكاد نراها ، لم نكن نرى سوى الحب . آه ! هكذا كانت السعادة ، أعرف أننى أردت التمسك بها منذ تلك الآونة ، مثلما تركت نفسى أستسلم ليديها القريبتين ، لكن بلا جدوى ، فالمياه لاتلبث أن تنفلت ، كنت أحس وأنا على شفا السعادة بأشياء أخرى غير الفرحة التى تلون حبى ، وأيضاً تلون الخريف .

راح الخريف يتقدم ، فيهتز العشب كل صباح ، وعندما يجف يكتسب لونه الذهبى ، وفى ساعات الفجر يصبح أبيض ، ويحيط البط فوق سطح البركة مرفرفاً بأجنحته ، ويتحرك بكل وحشية ، ونراه أحياناً يطير ، ويطلق صيحات عالية وهو فى طيرانه العالى حول «لامورنير» ، واختفى فجأة ذات صباح ، وعرفنا أن بوكاج قد حبسه ، وأخبرنى أنهم يجبسونه دائماً فى الخريف ، فى فترة الهجرة وبعد بضعة أيام تغير الجو ، فذات مساء هبت الرياح قوية قادمة من البحر ، جالبة معها المطر من الشمال ، والطيور المهاجرة . كان على أن أعتنى بمارسلين كل العناية ، راحت حاجتى تدفعنى للذهاب إلى المدينة ، فها هو ذا الفصل السيء قد بدأ مبكراً ، وها هو ذا ينهش أجسامنا .

راحت أعمال المزرعة تنادينى فى نوفمبر . كان علىّ أن أتعلم كل الأمور من بوكاج من أجل الشتاء . أعلن لى عن رغبته أن يرسل شارل كى يستكمل تعليمه ، تحدثت معه طويلاً ، وجربت كل السبل ، لكننى لم أنجح فى إقناعه ، كل ما وافق عليه هو أن يقصر فترة دراسته كى يسمح لشارل أن يعود فى فترة مبكرة . لم يُخَفِ عني بوكاج أن تحسن أمور المزارعين لم يحدث بدون متاعب كبيرة ، ثم راح يقدم لى اثنين من الفلاحين يأتمران بأمره ، إنهما تقريباً مزارعان ، أو مستأجران ، أو لعلهما خادمان . بدا الأمر جديداً تماماً كما تنبأ ، دارت هذه المحادثة فى نهاية أكتوبر ، وفى الأيام الأولى من شهر نوفمبر كنا قد غادرنا المكان لنستقر فى باريس .

سكنا فى شقة بشارع س . . قريباً من « باسى » ، أشار بها علينا أحد أشقاء مارسلين ، الذى استطعنا زيارته أثناء عبورنا

الأخير بباريس ، إنها أكبر من تلك التى تركها لنا أبى . بدت مارسلين قلقة قليلاً ، ليس فقط بسبب الإيجار العالى ، ولكن أيضاً من كل المصاريف التى نتكبدها . رحت أهديء من كل تخوفاتها ، ورحت أجاهد كى أخفف عنها ، لاشك أن مصاريف الإقامة تستهلك دخولنا فى هذه السنة ، لكن ثروتنا لا بأس بها ، ويجب أن تزيد ، اعتمدت فى هذا على نشر كتابى «ويا له من جنون!» وعلى الإيراد الجديد للمراعى . قلت لنفسى إننى لن أتوقف عن أى مصروف ، فقد كان على أن أقلل من إحساسى بالتشرد الذى كنت أشعر به .

كنا نقضى الأيام الأولى من الصباح حتى المساء فى الدراسات . وراح شقيق مارسلين ، مضطرباً ، يدخر لنا الكثير . أحست مارسلين بالإرهاق ، وبدلاً من الراحة الواجبة عليها ، كانت تقوم باستقبال الزوار تلو الزوار . زاد البعاد فيما بيننا ، فمارسلين لم تعتد على الناس ، ومع ذلك لم تجرؤ أن توصد أبوابها ، كنت أجدها فى المساء منهكة ، ولم أقلق لتعبها ؛ لأننى لم أعرف سببه الحقيقى ، حاولت أن أقلل من ألمها ، وأنا أضع نفسى دائماً فى مكانها ، لكن هذا لم يبعث فى قلبى التسلية . فرحت أقوم برد الزيارات للزوار ، وكان هذا الأمر يساعدنى أحياناً فى التسرية .

لم أكن متحدثاً لبقاً ، فقد كان نزق الصالونات وروحها شيئاً لا يعجبني ، ومع ذلك أحسست بالتوتر . تُرى ماذا حدث منذ تلك الآونة ؟ أحسست وأنا قريب من الآخرين أننى حزين ، غاضب ، ومتضايق وثائر . . . ولمرات عديدة ، أنتم يامن أعدكم أصدقائي الوحيدين الحقيقيين ، لم تكونوا فى باريس ، وكان يجب ألا تعودوا إليها قبل فترة طويلة ، هل كان يجب على أن أكلمكم؟ هل كان يجب أن أجعلكم تفهمون أفضل أننى لست أنا ؟ ولكن كل ما كان ينمو فى داخلى وما أقوله لكم الآن هو ماذا كنت أعرف ؟ لقد بدا لى المستقبل شيئاً أكيداً ، ولم أصدق قط أننى أستطيع السيطرة عليه .

ومع ذلك فقد كنت أكثر غضباً ، فأى سبيل يجعلنى أجد نفسى فى كُلِّ من هوير ، وديديه ، وموريس وآخرين ، إننى أعرفكم وأحملكم المسئولية مثلى ، فسرعان ما فهمت أنه من المتعذر أن أتفق معهم ، ومنذ بداية النقاشات الأولى بيننا رأيت نفسى شخصاً مزيفاً ، وأن على أن أتشابه مع ما يعتقدون أننى أكونه ، وأن أبدو غاضباً ، وأن أبدو فى أحسن حال ، وأننى أحمل نفس الأفكار والذوق الذى يتصورونه قى ، وأنا لا يمكن أن نكون أوفياء لذلك أو حتى نتظاهر به .

رأيت على غير رغبتى الناس من مدرستى الأثرية والفقهية ، ولكننى لم أجد شيئاً أتحدث به معهم أكثر من متعة ومن إحساس المرء وهو يتصفح قاموس التاريخ . فى البداية كنت أتمنى أن أعثر على مفهوم مباشر للحياة لدى بعض الروائيين وبعض الشعراء ، ولكنهم لو كانوا يمتلكون هذا المفهوم فيجب أن نعرف أنهم لم يعبروا عنه قط ، ويبدو لى أن أغلبهم لم يعيش قط أيضاً ، ولم يسعد بالحياة ولو قليلاً ، لقد تعاملوا مع الحياة بغضب وهم يكتبون ، لا أريد أن أتدخل فى ذلك ولا أؤكد أن الخطأ لا يأتى منى . .

من ناحية فماذا أنتظر من الحياة ؟ هذا هو بالتحديد ما أردت أن أتعلمه ،
فالواحد منهم يتحدث إلى الآخر بمهارة عن مختلف شئون الحياة ، بدون أن
يتحدث عن الدوافع .

أما بالنسبة لبعض الفلاسفة ، الذين كان لهم دور في تعليمي فإننى
أعرف منذ فترة طويلة ماذا يجب أن نتظر منهم ، سواء كانوا علماء الرياضة
أو النقاد ، لقد اهتموا بأبعد ما يكون بالحقيقة المؤلمة ، لم يهتموا إلا بعلم
الجبر في حل المعادلات التى يقيسونها .

عند العودة إلى مارسيلين ، لم أخف عنها الملل الذى أصابنى ، فقلت
لها :

- كلهم متشابهون ، كل منهم يمارس وظيفة مزدوجة ، فعندما أتكلم عن
واحد منهم يبدو لى أننى أتكلم عن العديدين .

ردت مارسيلين : لكن يا صديقى لايمكنك أن تطلب من كل واحد أن
يختلف عن الآخرين .

- إنهم يتشابهون فيما بينهم ويختلفون عنى .

ثم أكملت بنبرة حزينة :

- لا أحد يعرف أنه مريض ، إنهم يعيشون وقد بدت عليهم الحياة ،
لا يعرفون أنهم يعيشون . فمئذ أن اقتربت منهم لم أعد أعيش ، ماذا أفعل ؟
أنا مضطر أن أتركك فى الساعة التاسعة ، وقبل أن أرحل أمامى وقت لأقرأ
قليلاً ، إنها اللحظة الحقيقية الوحيدة فى النهار ، ثم ينتظرنى أخوك عند
الموثق ، وبعد الموثق لايتركنى ، فيجب أن أرى بائع السجاد معه ،

ويصحبني إلى مصنع الأثاث ، ولا أتركه إلا عند جاستون ، وأتغذى في الحى مع فيليب ، ثم أجد «لوى» ينتظرني في المقهى ، فأحدث معه عن الدراسات العشية لتيودور التى أثبت عليها عند صدورهما ، وكى أرفض دعوته للقاء يوم الأحد كان على أن أصحبه إلى منزل آرثر ، ومع آرثر أشاهد معرضاً للرسوم المائية حيث تعرض بطاقات عن « البرتين » وجولى . . وأخيراً أعود منهكاً ، وأجدك أكثر تعباً منى ، وأرى أدلين ، ومارت ، وجان ، وصوفى . . وفى المساء أسترجع كل أحداث النهار . . وأحس أن يومى كان غير مفيد ، ويبدو لى أنه كان خاوياً ، وأننى أريد أن أستعيدته ، وأن أبدأ ساعاته الواحدة تلو الأخرى ، وأحس بالحزن لدرجة البكاء .

لم أجرؤ أن أقول إننى لا أعرف كيف أعيش ، ولا ما هو الطعم الذى تذوقته لحياة أكثر اتساعاً ، وأقل نضارة ، وأقل همّاً من أى حياة أخرى ، بدا لى هذا السر أكثر غموضاً - سر البعث - رحت أفكر ، لقد ظللت شخصاً غريباً بين الآخرين كشخص عائد من بين الموتى ، فى البداية لم أحس إلا بغضب شديد ، ولكن ما لبث أن انتابنى شعور جديد للغاية ، لم أحس بأى كبرياء ، وأؤكد على ذلك حتى عند نشر الأعمال التى حققت لى الكثير من التقريظ ، ترى هل هى الكبرياء ؟ ربما ، لكن أى نوع من الغرور اختلط بى ؟ إنها المرة الأولى التى أعى فيها قيمتى الحقيقية ، وما يفصلنى عن الآخرين يميزنى ويجعلنى مهماً ، وإذا لم يقُل أى شخص إنه لا يمكنه أن يتكلم فإننى أعرف كيف أقول نيابة عنه .

سرعان ما بدأت دراستى ، لقد شدنى الموضوع ، غرقت فى درسى الأول بكل ما أملك من مشاعر جديدة ، أما بالنسبة لازدهار الحضارة اللاتينية

فقد رحت أمشط تلك الثقافة ، مرتقيًا إلى أحاسيس البشر ، بطريقة غامضة تشير إلى موفور الصحة التى تتجمد وتتعارض مع كل اتصال روحى مع الطبيعة ، تختبئ تحت مظهر الحياة الملح ، وعندما تستمر الحياة تتكلم حيث الروح ، وتلمع ، ثم تموت ، وأخيرًا تدفع كل أفكارى لأقول : إن الثقافة المولودة من الحياة تقتل الحياة .

استنكر المؤرخون نزعة التعميمات البالغة السرعة . واستنكر البعض الآخر طريقتى . . أما الذين امتدحونى فقد تصرفوا كأنهم لم يفهمونى كما يجب .

وبمجرد صدور دراستى التى كنت أحلم بها للمرة الأولى رأيت «مينالك» ، لم أقابله من قبل إلا قبل زواجى بقليل ، لقد رحل من أجل القيام ببعض الاكتشافات البعيدة التى كان يخبرنا عنها أحيانًا لأكثر من عام ، لم أعجب به قط فيما قبل ، كان يبدو فخورًا ، لم يهتم بحياتى ، كم دهشت لرؤيته فى محاضرتى الأولى ، لقد أبعدتنى عن وقاحاته ، أما الابتسامة التى بدت لى ساحة فقد كنت أعرف أنها نادرة ، كان شخصًا عبثيًا ، أثرت حوله فضيحة وجدت فيها الصحف فرصة ذهبية لتلطيخه ، لقد جرحته كرامته وتميزه ، وتملكته رغبة الانتقام ، وما أثارنى أكثر هو أنه بدأ يوجه لى شتائم رحت أرد عليها .

- يجب أن تترك للآخرين فرصة ليكونوا على حق ، وأن يكون هذا باعثًا للعزاء ، فهم لا يملكون شيئًا آخر .

لكن «المجتمع الصالح» كما يشير هؤلاء الذين ، حسبما يقال «يتبادلون

الاحترام » ، عليهم أن يعتقدوا أنهم يتوجهون نحوه ويعلونه صالحًا في حقارته ، مما جذبني نحوه بقوة غامضة ، وجعلني أقترّب منه وأن أقبله بمودة أمام الجميع .

هأنذا أرى مع من أتحدث ، وها هي ذى المتاعب تتجاذب فيما بينها ، فأبقى وحدى مع « مينالك » . وبعد الانتقادات الساخنة والتقريظات الحمقاء انطلقت بعض كلماته حول دراستي ، فقال :

- أنت تحرق ما تحبه . حسنًا ، لقد تأخرت ، فقد اندلعت النيران ، ولا أعرف هل أنتظرك أو لا ؟ أنت تثير فضولى وأنا لا أتحدث عن طيب خاطر ، لكننى أود أن أتحدث معك ، لنتناول معًا العشاء هذا المساء .

أجبتّه : يا عزيزى « مينالك » ، يبدو أنك نسيت أننى متزوج .

علّق : فعلاً ، فأنا أرى الرباط العاطفى الذى جرّوت أن تكشفه لى ، لقد تصورت أنك حر . . خشيت أن أراه مجروحًا ، فقد بدا ضعيفًا ، فأخبرته أننى سألحق به عند العشاء .

فى باريس كان « مينالك » يتصرف كالمسافرين ، فهو يسكن الفنادق ، وينتقل بين غرف عديدة وكأنها شقته ، طالما أن هناك من يخدمه ، إنه يأكل على سجيته ، ويعيش على سجيته ، يتمدد فوق الأرض . وعلى الأثاث الذى بهرته قذارته ، بعض الأقمشة ذات الثمن المرتفع التى جاء بها من نيبال التى انتهى ، كما قال ، به الأمر أن يقدمها إلى متحف ، حدثنى قبل أن ألحق به أنها كبيرة للغاية ، فاجأته عندما دخلت ، ورحت اعتذر وأنا أزعج مائدته ، فقال لى :

- لم تكن لدى النية قط لمقاطعتك ، أعلم أنك ستتركنى أنتهى ، لو

حضرت أثناء العشاء ، فسوف أسكب لك نبيذ الشيراز الذى كان يغنى
«حافظ الشيرازى» من أجله ، لكن الوقت متأخر الآن ، يجب أن تصوم
لتشربه . هل تتناول أفضل السوائل ؟

ووافقت ، تصورت أنه سيتناوله معى ، لكنه لم يقدم لى سوى كأس .
قال وقد أصابتنى الدهشة :

- معذرة ، لأننى لا أشرب أبدا !

- هل تخشى أن تبلغ الثمالة ؟

أجاب : آه ! على العكس ! ولكننى أمسك بنفسى حتى لا أصل إلى حد
الثمالة ، يجب أن أحتفظ بوعى .

- وتسكب للآخرين الشراب ؟

ابتسم وقال :

- لا أستطيع ، إنها من فضائلى ، من الجميل أن أجد فيها رذائلى .

- على الأقل فأنت تدخن ؟

- ليس كثيرا ، إنها ثمالة غير شخصية ، سلبية ، ومن السهل قهرها ،
أبحث فى الثمالة عن لهاث ، وليس عن دوام الحياة .

- لنترك هذا . هل تعرف من أين جئت ؟ من «بسكرة» . عرفت أنك
مررت من هناك ، أردت أن أقتفى أثرك . ماذا حدث فى بسكرة ؟ لم أعتد أن
أكون وغداً إلا لمن لا يبوح لى ، ولما أعلمه بنفسى ، وبفضولى ، أنا أعتز
بذلك . لقد بحثت عنه دوماً ، وسألت فى كل مكان أستطيع الوصول إليه ،

خدمنى كتمانى وأعطانى الرغبة أن أراك ، أعلم أننى يجب أن أترف الآن ،
ولك أن تشرح السبب » .

أحسست بحمرة الخجل ، فقلت :

- ماذا تعرف عنى يا « مينالك » ؟

- هل تريد أن تعرف ؟ لا تخف ! أنت تعرف أصدقاءك جيداً ، وأيضاً
أصدقائى ، وتعرف أننى لا يمكن أن أتكلم عنك مع أحد ، وتعرف أن
أبحاثك مفهومة جيداً !

قلت بلهجة نافذة الصبر : ولكن لم تقل إننى أستطيع أن أكلّمك أكثر
من الآخرين ، هه ! ماذا عرفت عنى ؟

- عرفت أنك كنت مريضاً .

- لكن هذا لا يفيد فى . . .

- آه ! إنه مهم للغاية . قيل لى إنك كنت تخرج وحدك بإرادتك ، بلا
كتاب ! (وهنا بدأت فى الدهشة) وعندما لا تكون وحدك تكون فى صحبة
امراتك أو الأطفال . . لا تَحْمَرَّ خجلاً . . وإلا فلن أتابع كلامى . .

- دون أن تنظر إلى . .

- أحد هؤلاء الأطفال كان يسمى مختاراً كما أذكر ، جميل مثل جلده ،
ولص ، وزمار مثل الآخرين ، ويبدو لى أنه يستحق أن أتكلم عنه طويلاً ،
لقد اشتريت ثقته ، وأنت تعرف أن هذا ليس سهلاً ، أعتقد أنه كان يكذب
وهو يقول إنه لا يكذب . . هل ما حكاها لى عنك حقيقى ؟

قام « مينالك » وأخرج علبة صغيرة من درج وفتحها ، قال وهو يمد لى

شيئًا ما ليعرفنى : هل هذه المقصات كانت ملكًا لك ؟ إنها صِدِئَةٌ ، من الأبونيت المزيف ، لم أجد صعوبة فى التعرف على هذه المقصات الصغيرة التى يملكها مختار .

- إنها ملك زوجتى .

- يزعم أنك صاحبها ، وأنتك أدت رأسك ذات يوم حين كنت وحدك معه فى الغرفة ، المهم ليس هذا ، فهو يزعم أنه أخفاها فى ملابسه ، وأدرك أنك كنت تراه فى المرأة ، وفوجئ بأنك تنظر إليه بدهشة ، رأيتَه يسرق ولم تقل شيئًا ! لقد أصابت الدهشة مختارًا نتيجة لهذا الصمت . . وأنا أيضًا .

- ليس لدى أى معرفة عما تقول . . كيف عرف أننى دهشت ؟

- ليس هذا مهمًا ، لقد تمتعت بما فيه الكفاية بهذه اللعبة ، فهؤلاء الأطفال يلهون بنا دائمًا ، واعتقدت أنك أمسكت به ، ولكنه هو الذى أمسك بك . . ليس هذا مهمًا ، فسّر لى سبب صمتك .

- أردت أن يفسر لى ذلك .

ظللنا صامتين لبعض الوقت . راح « مينالك » يمشى فى غرفته الواسعة ، ثم أشعل سيجارته ، وما لبث أن ألقاها لتوه ، وعَلَّقَ :

- هناك « حِسٌّ » مثلما يقول الآخرون ، حس يبدو أنك تفتقده يا عزيزى ميشيل .

قلت وأنا أجاهد فى أن ابتسم : الحس الروحى ، ربما .

- أو ببساطة حس الامتلاك .

- أعتقد أنك لم تحس به قط .

- لقد أحسسته قليلاً ، انظر هنا ، لا شيء يخلصني في هذا المكان ، لا شيء بالمرة حتى السرير الذى أنام عليه ، كم أشعر بالخوف من الراحة ، إن الامتلاك أو الملكية تشجعني على ذلك ، مما يجعلني لا أنام فى أمان . أحب أن أعيش كى أزعج لى نفسى أننى أحيا ، وكى أحفظ نفسى ، حتى فى قمة ثرائى ، فإن هذا الإحساس يصيبني بحالة من الحذر والضيق . فأروح أعطى الحماس لحياتى ، لا أستطيع أن أزعج أن الحب خطر ، ولكننى أحب حياة المصادفات ، وأريد منها المزيد فى كل لحظة ، وبكل شجاعة ، وكل سعادة ، وكل موفور الصحة .

قاطعه : إذن ، ماذا يقربك منى ؟

- آه ! أنت تفهمنى بشكل سيء . يا عزيزى ميشيل ، لقد حاولت - بشكل غبى - أن أوقف ضميرى يا صديقى ميشيل لو انشغلت كثيراً أو قليلاً بمشاكل الناس ، فليس هذا بدافع القبول أو الرفض ، هذه الكلمات لا تعنى شيئاً كبيراً بالنسبة لى ، لقد كلمتك كثيراً عن نفسى ، معتقداً أننى أتورط ، فى الكلام ، لقد أردت أن أخبرك أن هناك أشخاصاً لا يمتلكون حس الملكية ويبدو أنك تملك الكثير ، وهذا شيء خطير .

- ماذا أملك إذن !

- لا شيء ، إذا أخذت الأمر بهذا المفهوم . . . فعليك ألا تكمل أبحاثك . ألسن مالكاً فى مقاطعة نورماندى ؟ ألم تجيء من مقامك هناك ؟ ألم تعيش حياة بذخ فى ياس ؟ أنت متزوج وتنتظر طفلاً ، أليس كذلك ؟

قلت وقد نفذ صبرى : حسناً ! هكذا يثبت ببساطة أننى أعرف كيف أمارس حياة أكثر خطورة - مثلما تقول - منك .

كرر « مينالك » بقوة : طبعًا . . ببساطة .

ثم استدار فجأة ومد لى يده :

- إذن ، وداعًا ، يكفي هذا في مسائنا ، لن نقول أفضل من ذلك ، إلى اللقاء قريبًا .

ولم أره بعد ذلك لفترة طويلة .

شغلنى الهم والقلق من جديد ، ذات يوم مدنى أحد العلماء الإيطاليين
بوئائق جديدة حيث كنت أقيم أبحاثى ، أحسست بدرسى الأول صعبًا على
الفهم ، وأنه قد فتح شهيتى من أجل التوضيح بأسلوب مختلف ، وخاصة
الدروس التالية ، رحى أفهم من خلال تجربتى بأن كل ما فعلته كان من
قبيل المصادفة ، وأنه كم من المثقفين يجب أن يمارسوا قوتهم فى هذا المضمار ؛
لأنهم لم يفهموا نصف كلمة ، أما بالنسبة لى فلم أستطع أن أفهم حتى كلمة ،
وأعترف بذلك ، إنه جزء من العناد الذى امتزج بحالة من الثقة الطبيعية ،
وما كان على أن أقوله من جديد ، بدا لى أكثر عجالة ، وأصبح من الصعب
على أن أقوله ، بل وأن أسمعه .

لكن كم من العبارات تصبح شاحبة عندما نكتبها ! فهل كانت الحياة ،
عند أقل بادرة من « مينالك » أكثر بلاغة من أبحاثى ؟ آه ! لقد فهمت
جيدًا فى تلك الفترة أن التعليم شىء معنوى لدى العديد من الفلاسفة
القدامى الذين كانت لديهم حصيلة كبيرة من الكلمات .

رأيت « مينالك » فى بيتى مرة ثانية بعد ثلاثة أسابيع من لقائنا الأول .
حدث ذلك بعد اجتماع حضره الكثيرون ، وكى نتجنب أى إزعاج يومى

فضّلتُ أنا ومارسلين أن نترك أبوابنا مفتوحة في مساء يوم الخميس ، ثم نقوم بإغلاقها في الأيام الأخرى ، وفي كل خميس يأتى أصدقاؤنا . يتيح لنا اتساع قاعتنا أن نستقبل أعدادًا كبيرة منهم ، يطول الاجتماع كثيرًا قبل أن يحل الليل ، أعتقد أنني أجذبهم ، خاصة بطيبة مارسلين ، وحمية النقاش فيما بينهم ، أما بالنسبة لى فلم أجد منذ الأمسية الثانية من هذه الأمسيات شيئًا يستحق أن نسمعه ولا أن أقوله ، رحت أخفى ضيقى ، وأنا تائه من حجرة التدخين إلى الصالة ، فالغرفة القديمة ، والمكتبة . أردد أحيانًا جملة ، وأتأمل شيئًا ، وأتطلع حولي كأننى تائه .

راح أنطوان ، وايتيان ، وجود فرى يتناقشون في الغرفة ، وهم يستندون على مقاعد زوجتى ، أما هوبير ولوى فقد راحا يتحسسان بلا حذر ، وجربا المياه المجمدة في مجموعة أبى . وفي غرفة التدخين وضع ماتيا سيجارة فوق المائدة كى يسمع ليونارد بشكل أفضل . كانت المائدة مصنوعة من خشب الورد ، وفوقها كأس من الكوارسو ، انسكب فوق السجادة ، أما قدمًا ألبير الموحلتان فقد داستا فوق أريكة ، ولطختا القماش ، أما الدخان الذى ينفسونه فقد جعل من استعمال الأشياء أمرًا مرعبًا . . وانتابتنى رغبة غامضة ، أن أدفع كل ضيوفي فى أكتافهم ، لقد فقدت الموبيليا ، والأقمشة والأوشام كل قيمتها عند أول محاولة فاتسخت ، أشياء وأشياء أصابها المرض ، وكأن الموت قد ترك أثره فيها ، أردت أن أصور كل شئ ، وأن أضع على كل شئ مفتاحًا خاصًا بى ، فكرت أن « مينالك » سعيد برغم أنه لم يحصل على شئ ! أما أنا فأريد أن أحتفظ لنفسى بكل ما يسببه لى من معاناة ، وأنا أتساءل من أجله ، فماذا يهمنى فى كل هذا ؟

فى صالة صغيرة أقل إضاءة يفصلها زجاج بلا قصدير ، لم تستقبل

مارسلين سوى بعض المقربين ، كانت متمددة فوق إحدى الأرائك ، بدت شاحبة تمامًا ، ورأيته بالغة التعب ، فأحسست بالخوف ، مما جعلنى أؤكد أن هذا الاستقبال سيكون الأخير من نوعه . كان الوقت متأخرًا ، ورحت أنظر إلى ساعتى ، وأحسست أن فى جيب سترتى مقصات مختار الصغيرة .

- لماذا سرقها ؟ هل من أجل تدميرها وإتلافها ؟

فى تلك اللحظة طرق أحدهم على كطفى ، فاستدرت فجأة ، إنه « مينالك » إنه تقريبًا الوحيد الذى يرتدى زيه الرسمى ، جاء لتوه ، شدنى كى أقدمه إلى زوجتى ، لم أكن قد فعلت ذلك بعد . بدا « مينالك » أنيقًا ووسيلًا ، وله شوارب متهدلة ومجعدة تجعل وجهه أشبه بوجه القرصان ، ينم البرود على وجهه عن الكثير من الشجاعة والحيرة والطيبة . لم يكن أمام مارسلين سوى أن تخبرنى أنه لا يروق لها ، وبعد أن تبادل معها بعض العبارات الجامدة اللطيفة ، سحبته إلى غرفة التدخين .

فى الصباح علمت المهمة التى كلفه إياها وزير المستعمرات ، فقد تحدثت صحف كثيرة عن الموضوع ، وعن مغامراته التى يبدو أنها تنافت مع قواعد مهنته ، فى الأمس بالغت الصحف كثيرًا فيما يتعلق بالخدمات المؤداة للوطن ولل بشرية من قبل الاكتشافات التى أسفرت عن استكشافاتهم الأخيرة ، بدا كل شىء كأنه لا يلتزم بأمر إلا لهدف إنسانى ، برغم أننى عهدت فيه التفانى من أجل الآخرين ، والإخلاص ، والجرأة ، وكأنه قد استعاد شيئًا من حقه من كل هذا المديح .

- بدأت أهنته ، فقاطعنى عند الكلمات الأولى قائلاً :

- ماذا ؟ وأنت أيضًا يا عزيزى ميشيل ، أنت تشتمنى ، أترك هذه

السفاسف للصحف ، إنهم يبدون مندهشين أن رجلاً له تقاليده يمكنه أن تكون له بعض الفضائل . لا أعرف كيف أمارس بنفسى تلك الامتيازات والمزايا التى يزعمونها ، إنها جميعها أشياء عمومية ، لا أزعـم شيئاً سوى كل ما هو طبيعى ، فالمتعة التى أحسها تجعلنى أشعر أننى يجب أن أفعلها .

قلت له : هذا يمكن أن يذهب بك بعيداً .

رد « مينالك » : لقد حسبتها جيداً ، إذا كان كل من يحيطون بنا يمكنهم إغواؤنا هكذا ، فإن أغلبهم يفكر ألاّ يحصل بنفسه على مكسب جيد إلا من خلال الضغط ، لا يعجبهم سوى الضغط ، فمن خلاله يزعم كل إنسان أن به تشابهاً خاصاً ، كل شخص يختار رئيسه ثم يثيره ، حتى ولو لم يختار الرئيس الذى يغضبه ، فهو يوافق على الرئيس الذى اختاره . وأعتقد أن هناك أشياء أخرى يجب قراءتها فى الإنسان ، ونحن لا نجرؤ ، لا نجرؤ أن ندير صفحة ، إنه قانون الإثارة ، كما أسميه قانون الخوف ، نحن خائفون أن نكون وحدنا ، وألاًّ نجد شيئاً ، هذا الإرهاب المعنوى يبدو لى بشعاً ، إنه الجبن المزدوج ، ترى من يحاول ؟ إنه الشخص الذى يحس فى نفسه بالتناقض ، وهو أيضاً الذى يمكنه أن يمتلك شيئاً من الندرة ، ويرتبط بكل ما يعطيه أى إنسان للأمر من قيمة ، وما يحاول أن يبرزه ويثيره ، ويزعم أنه يجب الحياة .

تركت « مينالك » يتكلم عما حدث له قبل شهر من ذلك الحادث ، أما أنا فقد تحدثت إلى مارسلين كى أوكد لها كلامه ، لكنه - وبكل جبن - قاطعنى ، كررت عليه - مثيراً مارسلين - الجملة كلمة كلمة التى قاطعنى بها :

- عزيزى «مينالك» . . لايمكنك أن تطلب من كل شخص أن يختلف
عن الآخرين . .

سكت «مينالك» فجأة ، ونظر إلى بطريقة غريبة ، ثم استسمح منى
وأدار ظهره بلا مبالاة ، ثم راح يتحدث مع هكتور فى أشياء غير مفهومة .
وكما قلت ، فإن عبارتى بدت لى غبية ، وأحسست أنها يمكن أن تجعل
«مينالك» يصدق أننى أتحسس بالهجوم فى كلماته ، كان الوقت متأخراً ،
وضيوفى قد رحلوا ، وعندما خوت القاعة عاد «مينالك» إلى ، وقال لى :
- لا أستطيع أن أترككما هكذا ، لقد فهمت بلا شك كلماتكما خطأ .

أجبت : لا ، أنت لم تفهم خطأ ، ولكنها كانت بلا معنى ، ولم أقلها إلا
لأننى أعانى من حماقاتهم ، وخاصة أننى أحس أنها تحقرنى فى عيونكم ،
وكأنكم أقمتم محاكمة لنا ، أنا أؤكد لك أننى أكره وقاحتى مثلكم ، وكل
الرجال أصحاب المبادئ .

رد مينالك ضاحكاً : إنهم كذلك ، الناس الأكثر كراهية فى العالم ،
نحن لأنكن لهم أدنى قدر من زلاتهم فهم لا يفعلون قط مايتفق مع
مبادئهم ، إنهم ينظرون إلى ما يفعلونه كأنه أمر سيء ، فيكاد الشك يكون
واحداً منهم . أحسست بالكلمة تتجمد على شفاهى ، أما الشجن الذى
استبد بى فقد عرفنى كيف أن عاطفتى لاتزال حية نحوكما ، لقد تمنيت أن
أكون دنيئاً ، ليس فى عواطفى ، ولكن فى الحكم الذى أصدره .
- فى الحقيقة إنَّ حكمك خاطئ . .

قال وهو يمسك يدى فجأة . ليس هذا هو المهم ، فيجب أن أرحل

قريباً . كنت أريد أن أراكما ، سيكون سفرى هذه المرة أكثر طولاً من كل السفريات السابقة ، ولا أعرف متى سأعود ؟ يجب أن أرحل خلال الأسبوعين ، فلا أحد يعرف شيئاً عن موعد رحيلى ، وهانذا أعلنه لكما فى سرية ، سوف أرحل عند الفجر ، وليلة الرحيل بالنسبة لى فى كل مرة ليلة معاناة مخيفة ، وبصفتك رجل مبادئ : هل يمكن أن أعتد عليك أن تقضى هذه الليلة الأخيرة قريباً منى ؟

قلت له : لكننا سنلتقى .

- لا ، سأكون مشغولاً خلال الأسبوعين ، لن أكون فى باريس ، غداً سوف أرحل إلى بودابست ، وطوال عشرة أيام يجب أن أكون فى روما ، هنا أو هناك يوجد أصدقاء أريد أن أودعهم قبل مغادرة أوروبا ، وهناك شخص آخر ينتظرنى فى مدريد .

- حسناً ، سوف أقضى ليلة الرحيل معك .

- وسوف نشرب نبيذ شيراز .

وبعد بضعة أيام من هذه الأمسية بدأ حال مارسيلين يسوء ، فقد استبد بها التعب ، كانت تتجنب الشكوى ؛ ولأننى أُعِدُّ نفسى مسئولاً عن هذا التعب فقد وجدت أن هذا شىء طبيعى ، وتجنبت إثارة القلق . أخبرنا طبيب عجوز أن الوقت أظف ، وأثناء هذا حدثت متاعب جديدة مصحوبة بحمى ، جعلتنى أستدعى الطبيب ، وهو أمهر المتخصصين ، أدهشه أننى لم أستدعه قبل ذلك ، وأوصى بنظام علاجى متشدد ، كان عليها أن تتبعه منذ وقت طويل ، وبحذر شديد ، وأصبح على مارسيلين أن تتصرف بدءاً من هذا اليوم وحتى نهاية شهر يناير بشكل مختلف ، فعليها أن تجلس فوق

المقعد طويلاً ، بدون أى قلق ، فلازمها الكثير من الاكتئاب الذى لا تريد أن تعبر عنه . رضخت مارسلين تماماً لتعليقات الطبيب ، ولكنها غضبت قليلاً عندما طلب منها الدكتور أن تتناول «الكينين» لأنها كانت تعرف أن ابنها يمكن أن يعانى منه طوال الأيام الثلاثة ؛ لذا رفضت بإصرار شديد أن تتناوله ، فازدادت الحمى ، ثم كان عليها أن تمتثل ، ولكن حدث هذا مع الكثير من الأسى ، كأنها تتخلى عن المستقبل ، وبنوع من الامتثال للقدر رضخت للرجبة التى كانت تعمل فيها حتى ذلك الحين بطريقة جعلت حالتها تزداد سوءاً طوال الأيام التالية .

رحت أحيطها بأكبر عناية ممكنة ، وتصرفتُ على أحسن ما يكون ، وأنا أكرر كلمات الدكتور الذى لم ير أن حالتها جسيمة للغاية ، ولكن العنف الذى صاحب خوفها انتهى بأننى أعلنت الطوارئ بدورى . آه ! كم هو خطير أن تتوقف سعادتنا على الأمل ! وعلى مستقبل مجهول ، خاصة بالنسبة لى أنا ، لم أجد طعماً للأشياء إلا فى الماضى ، إن إنقاذها المفاجئ حتى لو للحظة مكننى أن أتألم يوماً ، كما رحت أفكر ، لكن المستقبل يفسد الحاضر أكثر من أن يفسد الحاضر الماضى .

وفى أثناء ذلك ، حل المساء الذى وعدت به «مينالك» ، وبرغم ترمى أن أترك مارسلين فى أمسية شتوية فقد نجحت أن أجعلها توافق على شرف الموعد ، كى أوفى بوعدى ، بدت مارسلين فى أحسن حالاتها هذا المساء ، ومع ذلك كنت قلقاً ، ورحت ألزم مكانى إلى جوارها ، ولكن فى الشارع اكتسب قلقى قوة جديدة ، فرحت أدفعها كأننى أناضل ضدها ، وأثور ضد نفسى قائلاً : من الأفضل أن أتححر منها ، بلغت هذا شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى حالة عالية من التوتر والحساس الفريد ، والمختلف تماماً ،

وقريباً من القلق المؤلم الذى قد يضطرها للولادة ، ولكن على مقربة منا توجد سعادة . كان الوقت متأخراً ، وسرت بِخُطأ كبيرة . كان الجليد قد بدأ فى التساقط والانهمار ، أحسست بالسعادة وأنا أتنفس جو الليل المنعش ، وأنا أناضل ضد البرد ، وكنت سعيداً وأنا أمشى ضد الريح فى الليل ، وفوق الجليد ، ورحت أحتفظ بطاقتى .

رأيت «مينالك» وقد جاء يستقبلنى فوق درجات السلم ، ينتظرنى نافذ الصبر ، بدا شاحباً ومنهكاً قليلاً . خلع عني المعطف ، وأجبرنى أن أغير حذائى الطويل المبلل ، وأن ارتدى خفّاً فارسياً طريّاً ، وفوق منضدة قريبة من النيران كان قد وضع قطع الحلوى ومصباحين يضيئان الغرفة ، سألتنى «مينالك» عن صحة مارسلين ، وكى أخفف من حدة الأمر، أجبته :
- إنها على أحسن ما يرام .

قال : هل تنتظران طفلكما قريباً ؟

قلت :

- خلال شهر .

انحنى «مينالك» نحو النيران ، وكأنه يريد أن يخفى وجهه ، صمت وسكت طويلاً لدرجة أثارت اهتمامى ، لم أعرف ماذا أقول له ، قمت وتحركت بضع خطوات ، ثم اقتربت منه ، ووضعت يدي فوق كتفه ، فى حين استغرق هو فى التفكير . همست :

- يجب أن تختار . المهم هو أن تعرف ماذا تريد ؟

سأله : ألا تود الرحيل ؟

وأنا أحس أنني يجب أن أعطيه كلمتي :

- يبدو . .

- هل أنت متردد ؟

- مِمَّ ؟ أنت لك امرأة وطفل . أما أنا فعرفت شكلاً من الحياة لا أحد يعرفه سوى من جربه ، كم أتمنى السعادة للآخرين ، إنه لمن الجنون ، ألا تعرف كيف تمارس السعادة ، أعرف أنني سأرحل غداً ، حاولت أن أصنع سعادة على مقاسي . . احتفظ ببيتك سعيداً وهادئاً .

صحت : إنها قامتي التي أحاول أن أقيس سعادتي عليها ، ولكنني كبرت الآن ، وسعادتي تقبض عليّ ، وأحس أحياناً أنني أختنق .

قال «مينالك» : ياه ! سوف تفعل .

ثم اتجه نحوي ، وحدّق في عيني ، لم أجد شيئاً أقوله . ابتسم بحزن .
وَرَدَّ :

- نعتقد أننا نملكه ، ونحن نملكه ، اسكب كل «الشيراز» يا عزيزي ميشيل ، لن تذوق مثل طعامه أبداً ، وكُل من هذه الفطيرة الوردية التي يصنعها الفُرس ، أريد أن أشرب هذا المساء وأنسى أنني راحل غداً ، وأتحدث طول الليل . هل تعرف ماذا يحدث الآن للشعر ؟ وماذا عن الفلسفة ؟ هل مات الأدب ؟ إنها أشياء منفصلة عن الحياة ، لقد كان للإغريق فكرة عن الحياة المثالية ، حيث كانت حياة الفنان حقيقة شعرية ، وحياة الفيلسوف مستمدة من فلسفته وممزوجة بالحياة ، وبدلاً من أن تدّعي الجهل فإن الفلسفة تتغذى من الشعر ، والشعر يعبر عن الفلسفة ، كان

هذا شيئاً رائعاً اليوم ، فإن الجمال لا يبقى طويلاً ، كما أن الحكمة تنتفى .

قلت له : لماذا تعيش حكمتك؟ ولماذا لاتكتب مذكراتك ؟

- أجبت وأنا أراه يبتسم : آه ، ببساطة : ذكريات رحلاتك ؟

عَلَّقَ : لأننى لا أريد ذكرياتى ، أعتقد أن هذا يمنع وصول المستقبل ، وأنَّ تجاهلَ الماضى أفضل شىء لنسيان الأمس ، لم أكن سعيداً دوماً ، فهذا لا يكفينى .

أثارتنى كلماته التى تسبق فكرتى ، حاولت أن أنسحب للوراء ، وأن أوقفه ، حاولت أن أعارضه ، فقد أثارتنى ضد نفسى أكثر مما أثارتنى ضد «مينالك» ؛ لذا التزمت الصمت ، أما هو فكان يتحرك جيئةً وذهاباً وكأنه وحش فى قفص ، أو كأنه متعلق فى نيران ، وسكت طويلاً ، ثم قال فجأة :

- إذا كانت عقولنا المحدودة تعرف كيف تحتفظ بالذكريات ، فإنها تحتفظ بها بشكل سيئ ، والذكريات الرقيقة تتبخر ، والأكثر روعة تفسد .
والأكثر لذة تعقبها الأكثر خطورة . نحن إذن نتذكر أكثرها لذة أولاً .

ومرة أخرى خيم صمت طويل ، ثم عاد يتكلم :

- أسف ، ونَدَمٌ ، وتَوْبَةٌ ، إنها أشياء قريبة العهد ، لا أحب أن أنظر إليها من الخلف ، إننى أترك الماضى خلفى بعيداً كأنه عصفور يطير ويترك ظله . آه ، يا ميشيل ! كل البهجة تنتظرنا دوماً ، لكنها تريد أن تجد العش الخاوى ، أن تكون وحيدة ، وأن تصل إليها كأنها أمل . آه يا ميشيل ! تبدو كل البهجة فى هذه الصحراء التى تُفسدُ من يومٍ لآخر ، إنها أشبه بهاء منبع إميلييه الذى حكى عنه أفلاطون ، لا يمكن الاحتفظ بها فى أى أنية ، وفى كل لحظة تفرغ كل ما تحمله .

تكلم «مينالك» طويلاً أيضاً ، لا أستطيع أن أذكر هنا كل جملة ،
فالكثير منها قد تضاعف في داخلي ، إنها أكثر قوة من أن أحاول أن أنساها
بسرعة ، ليس لأنها بدت لي وكأن لا جديد فيها ، ولكنها راحت تعري
أفكاري ، أفكار اكتشفت أن عليها أستاراً ، وأننى قد خنقتها تقريباً ،
وانسابت في السهرة .

وفي الصباح ، بعد أن رافقت «مينالك» إلى القطار الذى أقله ، سرت
وحدى عائداً إلى مارسيلين ، أحسست بنفسى مُفْعَمًا بالحزن الشديد ، من
هذا الحقد ضد سعادة «مينالك» المجنونة ، وددتها أن تنفعل ، حاولت أن
أتجاهلها ، أحسست بالثورة لأننى لم أعرف كيف أرد عليه ، شعرت
بالغضب لأنه قال بعض الكلمات حاول فيها أن يشكك في سعادتى وفي
حبى ، لدرجة أنه قال : إن سعادتى أمر مشكوك فيه ، « هذه السعادة
الساكنة» كما قال «مينالك» . لم أستطع أن أبعد القلق عن نفسى ، ولكننى
أزعم أن هذا القلق يفيد في تغذية الحب ، تطلعت نحو المستقبل ورأيت فيه
ابنى الصغير يتسم لي ، وقد تشكلت فيه روحى وارتسمت ؛ لذا قررت أن
أمشى بخطاً ثابتة .

عندما عدت في الصباح إلى البيت صَدَمَنى شىء غير مألوف منذ الوهلة
الأولى ، فقد هرولت الحارسة لتقابلنى ، وأخبرتني بكلمات مرتعدة أن المأ
مخيفاً قد انفرد بزوجتى في الليل ، ثم اشتد عليها ، لم تكن تؤمن بخطر
البدانة ، وأحسَّتْ بألم شديد ، أرسلتُ في طلب الطبيب الذى جاء مهرولاً
أثناء الليل ، ولم يترك المريضة قط ، أرادت الحارسة حين لاحظت شرودى أن
تجعلنى أتماسك ، قالت : إن كل شىء على ما يرام ، وإن . . وأسرعت
نحو حجرة مارسيلين .

كانت الغرفة خافتة الضوء ، في البداية لم أستطع أن أميز الطبيب الذى أمسكنى بيده كى أظل ملتزماً الصمت ، ثم بدأ الظلام يكشف عن وجه لا أعرفه ، اقتربت قلقاً ، وبدون أن أحدث ضجة دنوت من السرير ، كانت مارسيلين مغلقة العينين ، شاحبة أكثر مما أعتقد ، كأنها ميتة ، أدارت رأسها نحوى بدون أن تفتح عينيها . فى ركن الغرفة المظلم بدا الوجه غريباً ويخفى أشياء عديدة ، ورأيت الأجهزة اللامعة . ورأيت أو اعتقدت أننى رأيت - خطأً من الدم ، وشعرت أننى أترنح ، ثم اتجهت نحو الطبيب الذى أسندنى . فهمت ، وخفت أن أفهم ، سألته بقلقى :

- والصغير !

هز كتفه بحزن بدون أن أعرف ماذا أفعل . ألقىت بنفسى فوق السرير وأنا أنتحب . آه ! ياله من مستقبل ! تمددت الأرض فجأة تحت خطواتى ، وأمامى لم أر سوى فراغ حيث رحت أترنح بكامل جسدى .

راح كل شىء يخوض فى ظلام الذكريات ، وبدأت مارسيلين تتحسن بسرعة ، وتركت لى إجازات بداية العام القليل من الراحة ، استطعت أن أبقى على مقربة منها طيلة ساعات النهار ، كنت أقرأ عليها ، لم أخرج قط إلاً وأحضرت لها بعض الزهور . رحت أتذكر عنايتها الرقيقة التى أحاطتنى بها عندما كنت مريضاً ، أحطتها بالكثير من الحب الذى منحته لى فيما قبل وهى سعيدة ، لم نتبادل أى كلمة بشأن الحادث التعس الذى قتل أملنا .

قيل إنه التهاب فى الوريد ، وعندما بدأ فى الزوال أصابها انسداد فى الشريان ، مما وضع مارسيلين بين الحياة والموت . كان الجو ليلاً ، وجدت نفسى مرتجياً عليها ، أحس من خلالها أن قلبى يدق أو يعود إلى الحياة ، يالها

من ليالٍ سهرتُ فيها طويلاً ! مركزاً نظراتي-الجامدة عليها ، آملاً بقوة الحب أن أهب لحياتها القليل من حياتي . لم أفكر طويلاً في السعادة ، وكان حزني وفرحي هو أن أرى مارسلين تبتسم .

انقبض قلبي ، أين أجد القوة لأعد أبحاثي ، ولأقولها ؟ ضاعت ذكرياتي ولم أعرف كيف تتابعَت الأسابيع ، ثم حدثت واقعة صغيرة أريد أن أخبركم بها .

ذات صباح ، بعد وقت قليل من الأزمة ، كنت قريباً من مارسلين التي بدت في حال أفضل ، ولكن أحسن الحال لا يزال ينقصها ، لم تقدر أن تحرك سوى ذراعيها . انحنيت كي أساعدها لكي تشرب ، وعندما شربت انحنيت نحوها أيضاً ، وبصوت أضعفه ألها ، رَجَّشَنِي أن أفتح خزانة أشارت إليها بعينيها ، كانت الخزانة تحت المائدة ، فتحتها ، كانت مليئة بشرائط من الأقمشة ومجوهرات صغيرة بلا قيمة ، ترى ماذا تريد ؟ أحضرت العلبة قريباً من السرير ، أخرج كل شيء الواحد وراء الآخر : هل هذا ، أو ذاك ؟ . . لا . . لا أحسست أنها قلقة . آه ! يا مارسلين ! هل هذه المسبحة هي التي تريدين ؟ . . حاولت أن تبتسم .

- هل تخشين ألا أعتنى بك بما فيه الكفاية ؟

همست : آه ! يا صديقي .

وتذكرت حديثنا في بسكرة . حساسيتها الشديدة وهي تسمعني أردد «فضل الله» ، استجمعت جأشي وقلت :

- لقد شفيت وحدي .

أجابت : لقد صليت طويلاً من أجلك .

قالت هذا برقة وبهزن ، أحسست في نظرتها بقلق يبتهل . . أمسكت المسبحة ثم وضعتها في يدها الواهنة المسترخاة فوق المفروش ، نظرة معبقة بالدموع والحب كأنها تكافئني ، لم أستطع أن أرد عليها ، وتأخرت لحظة ، لا أعرف ماذا أفعل ، بقيت متضايقاً ، ولم أصل إلى شيء ، قلت لها :
- وداعاً .

ثم تركت الغرفة بشكل عدواني وكأن شخصاً اصطادني .

وصل انسداد الشرايين إلى درجة خطيرة ، جلطة دموية خطيرة ، أصبح على إثرها القلبُ ضعيفاً ومنهكاً ، فأنثر على الرئتين ، وأضعف التنفس ، وجعله صعباً لاهثاً ، تصورت أنني لن أراها بعد ذلك ، لقد دخل المرض في مارسيلين ، وسكن فيها أكثر ، وراح يرسمها ويترك علامته عليها ، إنه لشيء مرعب .

أصبح المناخ معتدلاً ، وما إن انتهت أبحاثى حتى نقلت
مارسلين إلى «لامورنيير» ، أكد الطبيب أن كل الخطر قد زال ،

وكى يتم العلاج فليس هناك من شىء سوى الهواء النقى ، وأنا أيضاً كنت
فى أشد الحاجة إلى الراحة ، فقد طالت هذه السهرات التى تحملتها بنفسى ،
وخاصة هذا النوع من الحنان التلقائى الذى أحسسته نحو مارسلين حين
أصابها انسداد الشرايين ، أحسست فى داخلى نفس المشاعر المرعبة التى
تحسها ، أتعبنى كل هذا وكأنى أنا نفسى مريض .

فضَّلتُ أن أرافق مارسلين إلى الجبال ، ولكنها أبدت رغبتها القوية فى
العودة إلى نورماندى ، زاعمة أن أى جولة تجعلها أفضل ، وذكرتني أنه يجب
أن أرى المزرعتين اللتين كلفت نفسى بعض العناية بهما ، وراحت تقنعنى
أننى المسئول ، وأننى يجب أن أنجح ، لم نصل إلى درجة أن تدفعنى للجرى
فوق الأرض . . لم أعرف أن الكثير من التفانى قد دخل بيننا فى إلحاحها
المحبيب ، خاصة أننى خشيت أن أعتقد أننى قريب منها فقط من أجل
العناية بها ، وأننى يجب أن أعطيها المزيد . . لم أحس أننى بكامل حريتى
. . لقد راحت مارسلين تتحسن ، وجرت الدماء فى وجنتيها ، ولم يجعلنى
شىء مستريحاً أكثر من الإحساس أن ابتسامتها أقل حزناً ، وأننى يمكن أن
أتركها بدون خوف .

لذا عدتُ إلى المزرعتين ، وهناك حصدنا الشوفان ، كان الجو مليئاً بالأتربة والروائح التى خنقتنى فى بادىء الأمر مثل شراب ملتهب ، بدا أننى منذ عام مضى لم أتنفسه ، أو لم أتنفس أى أتربة ، وجعلنى أحس بالجو بشكل أفضل فوق المنحدر ، حيث كنت أجلس وكأننى مُنَحَنٍ . تذكرت «لامورنيير» رأيت أسقفها الزرقاء ، ومياها الساكنة ، وتلاها حول الحقول المحصودة ، وأخرى مليئة بالعشب ، وعلى مسافة بعيدة منحني الجدول ، وعلى بُعد أكثر تبدو الغابة التى تنزهت فيها خلال العام الماضى فوق الحصان مع شارل . انطلقت الأغنيات التى راحت تقترب منى ، إنها طيور تكاد تحط فوق كتفى ، هؤلاء العمال الذين أكاد أعرفهم يمثلون بالنسبة لى ذكرى غاضبة ، اقتربت منهم ، وابتسمت لهم ، وتكلمت إليهم طويلاً ، وراح بوكاج ذات صباح يخبرنى بحالة المزروعات ، كان يرأسلنى بشكل منتظم ، لم يكف عن إبلاغى بأقل حادث جرى فى المزارع ، كانت المحصولات على مايرام ، أكثر مما لو كان بوكاج سيتركها لى ، ومع ذلك راح ينتظر بعض القرارات الهامة ، وخلال بضعة أيام ، وجهتُ كل شىء على أحسن ما يكون ، بلا أى إحساس بالمتعة ، ولكن لمجرد أننى أهب لهذا النوع من العمل حياتى السيئة .

ما إن أصبحت مارسلين فى أحسن حال حتى استعدت لاستقبال بعض الأصدقاء الذين جاءوا يسكنون معنا ، كان مجتمعهم العاطفى والصاخب يعجب مارسلين ، لقد تركت المنزل كثيراً عن طيب خاطر ، فأنا أفضل مجتمع سكان المزرعة ، بدا لى أننى يمكن أن أجد ما أتعلمه أفضل . . كنت أحس بهذا النوع من البهجة عندما أكون على مقربة منهم ، أشعر أنهم يعرفوننى كثيراً فى أثناء دوران الحوار بين أصدقائنا ، أو قبل أن يبدءوا الكلام ؛ لذا كانت رؤية هؤلاء الفقراء تسبب لى سعادة لاتوصف .

قالوا إنهم سوف يردون على كل التساؤلات التي أتجنب أن أطرحها ، وهكذا فإنهم يتحملون وجودي بشكل أفضل ؛ لذا فسرعان ما أدخل في الحوار معهم ، مثلما أحس بالسعادة وأنا أراقبهم يعملون ، أردت أن أرى ألعابهم ، وأحياناً كنت أجلس معهم على مائدة الطعام ، أو أسمع مزاحهم وأرقب سعادتهم وقد انتابتنى مشاعر حب عاطفية أشبه بها أحسسته نحو مارسيلين ، إنه صدى سريع لكل إحساس غريب ، ليس جارفاً ، ولكنه محدد ، وحاد ، أحسست في ذراعي تجاعيد رجل الحصاد ، وكللت من التعب ، وشربت خمر التفاح التي يشربونها ، وأحسست بها ترويني وهي تنزلق في حنجرتي .

بدا لي أيضاً أن وجودي هنا ليس فقط من أجل الالتقاء بالطبيعة ، ولكنني أحسست بنوع من المشاعر التي تثير هذا التعاطف الغريب .

كان وجود بوكاج يسعدني ، كان عليه أن يجعلني أؤدّي دور السيد عندما يأتي ، ولم أرغب قط في هذا . رحت أقوم بجولات وأوجه العمال على طريقي ، لكنني لم أمتط ظهري الحصان خشية أن أحس أنني سيدهم فعلاً برغم التحذيرات التي تتابني حتى لا يعانون كثيراً لوجودي ، ولا يُجرح أحد أمامي . لقد بقيت أمامهم - مثلما كنت فيما قبل - مليئاً بالفضول السيئ ، وظل وجودهم غامضاً ، وبدا لي أن جزءاً من حياتهم بالغ السرية ، فماذا يفعلون عندما لا أكون هناك ؟ لم أتصور أنهم لايتسلون ، رحت أعير كل واحد منهم سرّاً عاندت نفسي أن أعرفه . أخذت أطوف ، وأتابع وأتجول ، واهتممت بطبائعهم الواضحة ، وكأنني أستقي من جانبهم الغامض ما يمكن أن ينير لي بعض الجوانب .

أثار انتباهي واحد منهم ، إنه جميل ، وطويل ، وغبي تماماً ، لكنه أثار غريزتي ، لم يكن يفعل شيئاً ، إنه ليس من أبناء البلدة ، تم التقاطه

بالمصادفة ، يعمل بمهارة طوال يومين ، وفي اليوم الثالث يكرُّ لدرجة الموت . تسللت ليلاً كي أراه في صومعته ، كان راقداً وسط الزبالة ، يغط في نوم ثقيل لرجل ثَمِل ، أخذت أدقق فيه لوقت طويل ! . . ذات يوم صحو رجل مثلما جاء ، علمتُ في نفس المساء أن بوكاج قد طرده .

أحسست بالغضب من بوكاج ، واستدعيتِه وسألتُه :

- يبدو أنك طردت بيير ، هل لك أن تخبرني السبب ؟

- لعل السيد لا يريد أن يحتفظ في مزرعته بسكير قدر ، يمكن أن يفسد العمال .

- أعرف أفضل منك ما يجب أن أحتفظ به .

- إنه متشرد ! ولانعرف من أين جاء ؟ وفي هذه البلاد فإن صدى مثل هذا الأمر سيء دائماً . . إنه يمكن أن يشعل النيران في المزرعة ذات ليلة ، ولعل سيادتك سعيد لما حدث .

- هذا أمر يخصني ، والمزرعة ملكي ، وأعتقد أنني يمكن أن أدير ما يعجبني ، وفي المستقبل حدّثني عن دوافعك قبل أن تصدر حكمك بإعدام أحد .

قلت : إن بوكاج قد عرفني طفلاً ؛ لذا أصابه جرح من أسلوبى في الكلام ، إنه يحبني لدرجة لا تجعله يغضب ؛ لذا لم يأخذ الأمر على محمل الجد ، لقد سكن الفلاح النورماندى طويلاً مؤكداً أنه لن يتدخل في شيء ، أى أنه لن يتصرف تبعاً لما يتمتع به من أهمية ، لقد اعتبر بوكاج أن هذا الخصام كنوع من النزوة العابرة .

ومع ذلك لم أود أن أفسد العلاقة بحدث عابر ، رحت أبحث عما يمكن أن أضيفه ، وسألته بعد لحظة صمت :

- ألا يجب أن يعود ابنك شارل قريباً ؟

- قال بوكاج وقد أحس بالجرح ورأيته قلقاً عليه : اعتقدت أن السيد قد نسيه .

- أنا أنساه يا بوكاج ؟ ! كيف يمكن بعد كل ما فعلناه معاً في السنة الماضية ؟ إننى أعتمد عليه كثيراً بالنسبة للمزارع .

- حسناً يا سيدى ، فعلى شارل أن يعود بعد ثمانية أيام .

- إذن ، فأنا سعيد يا بوكاج .

- وأنا أيضاً .

كان بوكاج على حق ، فأنا لم أنس شارل ، ولكننى لم أوله أى اهتمام ، فكيف أفسر أنه بعد الصداقة القوية التى ربطتنا لم أحس نحوه إلا بفضول شجن ؟ لعله انشغالى بأمورى التى لم تكن مثل السنة الماضية . كان يجب أن أهتم بالمرعتين ، فلم أكن أهتم قبل إلا بالناس الذين يعملون عندى ، وأن أجعلهم يتوترون ، ولاشك أن وجود شارل سيكون مبهجاً ، فهو مقنع للغاية وجدير بالاحترام ، راحت المشاعر الجياشة تفيض بى وأنا أتذكره ، وانتظرت مجيئه بلا أى خشية .

لقد عاد ، ثم كنت على حق فى مشاعرى ، فقد ألقى «مينالك» كل مايتعلق بالذكريات ، رأيت رجلاً آخر يدخل بدلاً من شارل ، إنه سيد مقصوص الشعر بدلاً من تلك القبعة السخيفة ، يا إلهى ! كم تغير ! إنه يختلف تماماً ، حاولت ألا أرد بالكثير من البرود ، استقبلته فى القاعة ، ولأن

الوقت ليل فلم أميز وجهه ، ولكن عندما أضأتُ المصباح لاحظت أنه في أحسن حال .

بدا اللقاء كئيباً ، عرفت أنه لم يكف عن الحضور للمزرعة ، وتجنبت طوال ثمانية أيام الالتقاء به ، وعكفت على أبحاثي ، وعزفت عن ضيوفي ، ثم بدأت في الخروج ، وانشغلت من جديد .

ملاً الخطّابون الغابة ، إنهم يأتون إليها كل عام لقطع جزء منها ، قسموها إلى اثنتي عشرة قطعة متساوية ، كانت الغابة تقل في كل عام ، خاصة بعض الأشجار التي ندر أن نجد مثلها ، ففي خلال اثني عشر عاماً سوف تكون حطاماً .

تم هذا العمل في الشتاء ، ثم قبل الربيع تم الاتفاق على البيع ، كان على الخطّابين أن يفرغوا من عملهم ، ولكن نتيجة لإهمال الأب هورتفان ، تاجر الأخشاب الذي يدير العملية ، جعل الربيع يأتي بسرعة ، وتكومت الأخشاب عبر البقايا الميتة من الأشجار ، وأخيراً قام الخطّابون بتفريغها ، حدث هذا بعد أن أصابوا البراعم الجديدة في الصميم .

هذا العام تجاوز إهمال الأب هورتفان - المشتري - كل خشيتنا ، كان يجب أن أترك له الشحنة بسعر بخس ، هل سوف يضغط بقوة كي يقطع غابة اشتراها بثمن ضعيف ؟ ومن أسبوع لآخر راح يمارس العمل محتجاً أحياناً على غياب العمال ، وأحياناً أخرى بأن الجو سيء ، ثم على حصان مريض ، وعلى المسائل التمويلية ، وأعمال أخرى .

أغضبني هذا إلى حد كبير في الصيف الماضي ، أما هذا العام فالأمر هادئ تماماً ، لم أخف الخطأ الذي فعله بي هورتفان ، فهذه الغابة التي تحتضر كانت جميلة ، رُحْتُ أتنزه فيها سعيداً منشراحاً ، أرقب الصور ،

وأفاجأ بالأفأعى ، وأجلس طويلاً فوق أحد الجذوع النائمة التى تبدو كأنها على قيد الحياة ، والتى تبرز منها بعض العساليج الخضراء من خلال الفتحات .

وفجأة - وفى النصف الأول من أغسطس - قرر هورتفان أن يرسل رجاله . جاء ستة رجال زاعمين أنه يمكنهم إنهاء العمل فى عشرة أيام ، كان جزء من الغابة يكاد يلمس مقاطعة «فالتارى» ، وافقت على تسهيل أعمال الخطّابين ، وأن أرسل لهم الطعام من المزرعة ، وكان الرجل الذى عليه أن يقوم بذلك يدعى «بوت» ، إنه أحد رجالى الذين كنت أتحدث إليهم عن طيب خاطر ، حاولت أن أراه بدون أن أذهب من أجل ذلك إلى المزرعة ؛ لأننى لم أكن أخرج فى تلك الآونة إلا قليلاً ، ولم أترك الغابة لبضعة أيام إلا قليلاً . ولم أعد إلى «لامورنيير» إلا من أجل ساعات الراحة . كان على أن أرقب العمل ، ولكن الحقيقة أننى كنت أرقب العمال .

أحياناً ينضم إلى هذه المجموعة من الرجال الستة اثنان من أبناء هورتفان ، الأول فى العشرين من عمره ، والثانى فى الخامسة عشرة ، يَبْدُوَانِ نحيفين ، وجامدى الملامح وكأنهما من عرق أجنبى ، علمت فيما بعد أن أمهما إسبانية . اندهشت فى البداية ، كيف جاءت إلى هنا ؟ ولكن هورتفان كان نزقاً فى شبابه ، قد تزوجها على ما يبدو فى إسبانيا ؛ ولهذا السبب كان محط أنظار البلد . فى المرة الأولى التى التقيت بأصغر الشابين - كما أتذكر - كان المطر يهطل ، وكان يجلس وحده فوق عربة مرتفعة وفوقها كومة عالية من أحزمة الحطب ، تمدد بين الأفرع ، وراح يغنى ويدندن بأغنية غريبة لم أسمع بها قط فى البلاد . كانت الجياد التى تجر العربة تعرف طريقها ، تتقدم بدون أن يقودها أحد ، لا أستطيع أن أتكلم عن التأثير الذى أحدثته

هذه الأغنية فيّ ؛ لأننى لم أسمع مثلها إلا فى إفريقيا . . . بدا الصغير ثملاً
فعندما مررت لم ينظر إلّى ، وفى اليوم التالى عرفت أنه ابن هورتفان . ولرؤيته
ثانية أو لانتظاره فيجب أن أؤخر عملية قطع الأشجار ، لم يأت ولدا
هورتفان سوى ثلاث مرات ، كانا يبدوان متباهيين ، ولم أستطع الحصول
على كلمة منها .

كان «بوت» - على العكس - يحب أن يحكى ، وقد أدركت أنه سوف يفهم
قريباً أنه يمكن أن يتكلم معى ، إنه لا يغضب أبداً ويفهم البلد ، اهتممت
بسرّه الغامض ، وفى كل مرة كان يخيب أملى ، ولا يعمل على إرضائى ، هل
هو الذى يتذمر مدعياً أن الأمر ليس سوى خداع جديد ؟ وماذا يهم ؟
سألت «بوت» وأنا أحدثه عن حياة القوطيين ، وعن نصوصهم التى تخرج
منها أبخرة كثيفة تصعد إلى رأسى . . . وأخشى عند أقل عتاب بيننا ، أن
تفقد بيننا الثقة ، ابتسم ، وبروح الفضول التى تنمو فى داخلى . قلت :

- والام ، ألم تقل شيئاً ؟

- ماتت الأم مند اثنى عشر عاماً . . . لقد قتلها .

- كم عددهم فى الأسرة ؟

- خمسة أطفال ، لقد رأيت أكبر الأبناء والأكثر شباباً ، إنه فى السادسة
عشرة ، وهو ليس قوى البنيان ، ويريد أن يصبح قسّاً ، ثم الفتاة الكبرى ،
وطفلاً من الأب . . .

وعرفت - بالتدريج - أشياء أخرى ، تجعل من منزل هورتفان مكاناً
مشتعلاً ، ذا رائحة نفاذة . راح خيالى يلف حوله كأنه ذبابة تطن حول لحم ،
وهى تلف . ذات مساء ، حاول الابن الأكبر أن يغازل الخادمة ، وحين

راحت تقاوم ، حاول الأب أن يساعد ابنه فاحتواها بين يديه القويتين ،
وأثناء ذلك كان الأخ الأصغر يستكمل صلاته في الطابق الأعلى ، فيما ظل
الأصغر شاهداً على المأساة ، يتسلى . تنبّهت أن الأمر ليس صعباً . لأن
«بوت» بعد فترة طويلة حكى أن الخادمة أرادت أن تفسد القس الصغير .

سألت : ألم تنجح المحاولة ؟

أجاب بوت : كان الأمر أكثر جساماً .

- ألم تقل إن هناك فتاة أخرى ؟

- أجل ، لا يجب أن ننام عند الأب . . ولكن هذا أمر لايهم الآخرين .

تشجعت من النظرته ، سألت :

- ألم تحاول ؟

- اخفض عينيه متصنعاً وقال مازحاً : أحياناً .

ثم رفع عينيه بسرعة : والصغير أبو بوكاج أيضاً .

- أى صغير ؟ هل هو أبو بوكاج .

- «السيد» ، إنه الذى ينام فى المزرعة . ألا يعرفه سيدى ؟

أكمل «بوت» : حقاً ، ففى العام الماضى كان عند عمه ، ولكن
الدهش أن «السيد» لم يقابله فى الغابة ؛ لأنه يذهب إلى الصيد فى كل
مساء .

قال «بوت» هذه الكلمات الأخيرة بصوت خفيض وهو ينظر إلى ، فهمت
أنه متعجل الابتسام ، ثم أكمل «بوت» وهو يحس بالرضاء :

- السيد يعرف مكاناً يصطادون فيه الحشرات ، فالغابة أوسع من أن
يكون فيها مكان واحد للصيد .

بدوت أقل حزناً ، برغم أن «بوت» قد تصور أنني سعيد من خدمة بوكاج ، بين لي في أى حفرة من القبة يتمدد «السيد» ALCID ثم عرّفني أى ناحية من السياج يمكننى أن أفاجئه ، كان المكان يقع فوق أعلى المنحدر ، وهو مكان ضيق خلف السياج ، يُشكل حاجزاً ، هناك حيث اعتاد السيد أن يقضى ست ساعات كل ليلة . هناك ، كنا نتسلى جيداً أنا وبوت ، حيث نغرس وتداً لايمكن اكتشافه ، وأقسم له أنني لن أتخلى عنه أبداً . لقد رحل «بوت» وهو لا يريد أن يفعل شيئاً ، أما أنا فقد تمددت فوق أرض المنحدر ورحلت أنتظر .

انتظرت ثلاث أمسيات بلا فائدة ، وبدأت أومن أن «بوت» قد خدعنى ، فى الأمسية الرابعة سمعت وقع خطوات تقترب ، خفق قلبى ، وعرفت معنى الخوف اللذيذ المصاحب للترقب ، كانت القبة قد غرست من قبل «السيد» بكل حرفية ، رأيته فجأة يختبر الوتد النحاسى ، أراد أن ينفذ منه ، فسقط ، وراح يضرب فى الهواء كفريسة وقعت فى مصيدة ، لكننى أمسكته ، إنه صبى وقح ، أخضر العينين ، أما شعره الأصفر فيبدو كأنه لشخص لثيم ، ركلنى بقدمه ، ثم حاول أن يعضنى ، وعندما لم ينجح ألقى على مسامعى أقذع الشتائم التى سمعتها فى حياتى ، وفى النهاية لم أستطع الإمساك به ، فانفجرت ضاحكاً ، ثم أوقفته فجأة ، ونظر إلى ، وببرة يائسة قال :

- أيها الوغد ، إنك تؤلمنى .

- انظر .

خَفَضَ جوربه إلى أسفل حذائه وأشار إلى ندبة ميزتها بصعوبة ، بدت مائلة إلى اللون الوردى قليلاً . ابتسم قليلاً ثم قال بمكر :

- سوف أخبر أمى أنك وضعت الفخ في طريقى .

- يا إلهى ، إنه واحد من فخاخك !

- بالتأكيد أنت الذى وضعتها هناك .

- ولماذا لا تكون أنت ؟

- أنت لا تعرف جيداً ، أرنى كيف تفعلها .

- علمنى .

فى هذا المساء عدت فى ساعة متأخرة من أجل العشاء ، وكالعادة وجدت مارسيلين قلقة ، لم أحك لها أننى أقمت ستة أطواق (مصائد) بعيدة عن زئير «السيد» الذى منحته ستة قروش .

فى اليوم التالى ، رحت أراجع معه كل الأوتاد ، وشعرت بالسعادة عندما عثرت على أرنيين بين المصائد ، أطلقت سراحهما ، فالصيد لم يكن من اهتماماتى ، فماذا ستتتاب هذه الفريسة إذن ؟ وكيف يمكن أن نمسكها بدون أن نقترف خطأ ؟ إنه «السيد» الذى أمسكها كما صرح لى . وأخيراً عرفت من «بوت» أن «هورتفان» هو رجل أعمال ، وأنه يجب أن أتدخل بين «السيد» وبين الشاب الأصغر من أبناء ألومسيين ، أكثر من قبل فى هذه الأسرة الغاضبة ، لكن بأى عاطفة سوف أصطاد ؟

كنت أقابل «السيد» فى كل مساء ، فتمسك الأرناب بأعداد كبيرة ، أمسكنا فى إحدى المرات ماعزاً صغيراً ، كان يتحرك بصعوبة ، لا أتذكر أى بهجة سببها لى «السيد» وهو يقتله بدون خوف ، لقد وضعنا الماعز فى المكان الصحيح ، حين استطاع ابن هورتفان أن يأتى للبحث عنه فى الليل .

منذ ذلك الحين لم أخرج من المنزل فى النهار ، حسب إرادتى ، حيث

بدت لى الغابة الخاوية أقل جاذبية ، حاولت أن أعمل بلا هدف ؛ لأننى منذ أن انتهيت من دراستى الأخيرة رفضت أن أكمل الطريق ، إنه عمل ناكر للجميل ، وأصبح يسبب لى أقل قدر من البهجة ، وأصبحت أقل ضجة فى الريف ، وأى صيحة كفيلة بإثارتى . كم من مرة جلست أقرأ بعيداً عن نافذتى حتى لا أرى أحداً يمر ! وكم من مرة خرجت فجأة . . أما الشئ الوحيد الذى كنت قادراً عليه فهو أننى أمتلك أحاسيسى .

ولكن عندما يحل الليل ، والليل هنا يحل سريعاً ، أحس أن ساعتنا قد حانت ، فلا أشك حتى فى الحمال ، أخرج مثلما يدخل اللصوص ، وتصبح عيناى كأنهما عينا طير الليل ، فيشد العشب المتموج العالى انتباهى ، وأيضاً الأشجار الكثيفة ، ويحفر الليل كل شئ ، وتبتعد الأشياء ، فتصبح الأرض بعيدة ، والمسطحات عميقة ، وتبدو الممرات حساسة ، ونحس أننا نعيش وجوداً مظلماً .

- ترى أين يتصور أبوك مكانك الآن ؟

- فى حراسة الحيوانات فى الحظيرة .

كان «السيد» ينام هناك ، وكنت أعرف ذلك ، قريباً من الحمام والدواجن ، وكأنه يحبس نفسه هناك كل مساء ، ويخرج من فتحة ضيقة من السقف ، وتلتصق بملابسه روائح الدواجن الدافئة .

ثم فجأة يسقط الصيد ، فيتسلل فى الليل كأنه سيسقط فى فخ ، بدون أى إيحاء وداع ، وبدون أن يقول لى : إلى الغد . كنت أعرف أنه قبل أن يعود إلى المزرعة فإن الكلاب تلزم الصمت . يقابل الصغير هورتفان ويسلمه العلف ، ولكن أين ؟ هذا ما لم تتوصل إليه رغبتى ، تهديدات ، ومكائد فاشلة ، لم يكن آل هورتفان يتركون أحداً يقترب منهم ، لم أعرف أين يكمن

سر ذلك الانتصار الجنونى والسر الغامض الذى يتراجع دائماً أمامى بالنسبة لهم ؟ هل يمكن أن نتوهم الغموض بقوة الفضول ، فنرى ماذا يفعل «السيد» حين يتركنى ؟ هل ينام فعلاً فى المزرعة ؟ آه ! لم أخف عنه احترامى له ولا ثقتى الزائدة فيه ، لقد أثارنى هذا ، ومنحنى بعض السلوى .

لقد اختفى فجأة ، فأصبحت وحدى بشكل يثير الخوف ، عدت عبر الحقول وسط العشب الكثيف . وقد أسكرنى الليل والحياة البرية والفوضى ، وتبللت ملابسى ولوثنى الوحل ، وغطتنى الأوراق ، ومن بعيد بدت «لامورنيير» بعيدة ونائية ، وكأنها ترشدنى كالمنار ، خاصة مصباح غرفة مارسلين ، لم أستطع أن أنام بالفعل فوق سريرى ، ولم أتوقف عن التفكير. وقد لمسنى خوف شديد .

كانت حصيلة الصيد هذا العام وفيرة من الأرانب ، والأرانب البرية التى تتابعت على أوتاد المصايد ، ورحت أرى كل شىء يمشى على مايرام ، أما «بوت» فظل يخبرنا طوال الثلاثة الأمسيات أنه سوف يلحق بنا بدون أن يفعل ذلك .

فى الأمسية السادسة من لىالى الصيد لم نجد أكثر من طوقين من الاثنى عشر ، وعندما طلع النهار طلب منى «بوت» مائة قرش كى يشتري الخيط النحاسى ؛ لأن الخيط الحديدى لاينفع فى شىء .

فى صباح اليوم التالى ، غمرتنى السعادة حين رأيت عشرة أطواق عند بوكاج ، وكان على أن أكافئه على حماسه الأكثر حمية مما كان فى العام الماضى ، لقد وعدته بعشرة مليات لكل طوق ممسوك ، وكان على أن أعطى مائة إلى بوكاج ، وفى هذه الأثناء كان «بوت» قد اشترى لنا الخيط النحاسى بالمائة قرش ، فجمعت مائة جديدة لبوكاج ، الذى قال لى وأنا أهنته :

- لست أنا الذى يجب أن تهنته ، إنه «السيد» .

- أوه !

كم من دهشة يمكن أن تضيعنا ؟ أحسست أن على أن أنماسك :

- أجل ، أكمل يا بوكاج ، ماذا تريد ، «السيد» ! أنا رجل عجوز ، وأنا مشغول كثيراً بالمزرعة ، وأصبحت الغابة صغيرة على الآن ! إنه يعرفها أحسن منى ، إنه شخص لثيم ، ويعرفها أفضل منى ، حيث يروح يفتش ويحصد الصيد .

- أنا أعرف ذلك جيداً يا بوكاج .

- إذن مقابل المائة قرش التى منحتة إياها ، فإننى سأترك خمسة قروش عن كل صيد .

- أقسم إنه يستحقها ، عشرين طوقاً فى خمسة أيام ! لقد اشتغل بكل جدية ، كما بذل الصيادون ما فى وسعهم ، وعليهم أن يستريحوا الآن .

- آه ياسيدى ، فبقدر ما أعطوا بقدر ما نالوا ، فالصيد يُباع بسعر طيب هذا العام ، والسعر أعلى ببضعة قروش .

ورحت أمثل أننى أصدق بوكاج ، وأن ما يعينى فى هذا العمل ليس هو الربح المتضاعف الذى يراه «السيد» وأنا أراه يخدعنى ، فترى ماذا سيفعلان بالنقود هو و«بوت» ؟ لا أعرف ، ولن أعرف شيئاً من آخرين ، إنها يكذبان دوماً ويخدعاننى لمجرد الخداع ، فهذا المساء لم يأخذوا مائة قرش فقط ، بل عشر فرنكات أعطيتها لبوت ، وحذرته أنها المرة الأخيرة ؛ لأننا لو استعدنا الأطواق ، فسوق تكون الخسارة كبيرة .

فى اليوم التالى جاء بوكاج لزيارتي ، بدا شديد الغضب ، وكنت أكثر منه

غضباً ، فترى ماذا حدث ؟ أخبرنى بوكاج أن «بوت» لم يعد إلا بصيد صغير من المزرعة ، وأن إحدى الفرائس كانت بولندية ، وعندما واجهه بوكاج بأول كلمة رد عليه وشتمه ، ثم رمى بنفسه عليه وضربه .

قال لى بوكاج :

- لو أذن لى سيدى وأعطانى السلطة فإننى سوف أطرده .

- سوف أفكر يا بوكاج ، أنا شديد الأسف ؛ لأنك قد تفقد هيبتك ، وأنا أرى أن تدعنى وحدى أفكر ، وَعُدْ هنا بعد ساعتين .

وخرج بوكاج .

لو احتفظت «ببوت» فسوف أفقد بوكاج ، ولو طردت «بوت» فسوف أدفعه للانتقام ، خسارة ! لقد فسد ، وأنا المذنب الوحيد . . ؛ ولذا فعندما عاد بوكاج قلت :

- أيمكنك أن تخبر «بوت» أننا لانود رؤيته هنا ثانية .

ثم انتظرت ماذا يفعل بوكاج ؟ وماذا يقول «بوت» ؟ وفى المساء فقط سمعت صدى للفضيحة ، لقد تكلم بوت ، أدركته أولاً من صيحاته التى أطلقها فى مسكن بوكاج ، كان الصغير «السيد» هو الذى يضرب ، أما بوكاج فكان يتحرك جيئة وذهاباً ، سمعته يقترب . ، خفق قلبى بقوة ؛ لأنه لا يضرب من أجل الصيد ، يالها من لحظة صعبة على المرء ! لقد طرحت كل المشاعر الكبرى ، وعلى أن أتصرف حيالها بشكل حاسم ، ترى أى تفسيرات سوف يخلقه ؟ ترى هل سأتصرف بشكل سيء ؟ آه . . على أن أستعيد دورى . . دخل بوكاج ، ولم أفهم شيئاً مما قاله ، إنه أمر عبثى ، ويجب أن أجعله يعيد ما قاله ، إنه يؤمن أن «بوت» هو المذنب الوحيد ، وقد

أفلتت منه الحقيقة ، وهى أننى أعطيت عشرة فرنكات إلى «بوت» ، ولماذا أفعل ؟ إنه رجل من نورماندى ، لقد سرق «بوت» الفرنكات العشرة بالتأكد ، وهو يزعم أننى قد منحتها له ، ثم أضاف الكذب إلى السرقة ، وابتدع قصة لإخفاء سرقة ، ليس بوكاج هو الذى يجب ألا نصدق . . المسألة لاتتعلق فقط بالصيد ، فقد كان السبب الحقيقى لأن يضرب بوكاج «السيد» هو أن الصغير قد بات خارج المنزل . .

وهكذا أنقذت الموقف ، على الأقل أمام بوكاج ، فكل شىء على مايرام ، ترى أى غبى هو «بوت» ! بالتأكد لن تكون لى رغبة هذا المساء فى الصيد الممنوع .

اعتقدت أن كل شىء قد انتهى ، ولكن بعد ساعة ظهر شارل ، لم يبد عليه أنه يمزح ، فهو يبدو من بعيد أكثر صلعة من أبيه ، على الأقل أكثر من العام الماضى .

- حسناً يا شارل ، أنت لم تذهب منذ فترة طويلة .

- إذا حاول سيدى أن يرانى فليس عليه سوى أن يأتى إلى المزرعة ، صدقنى ، أنا لا أحب الغابة ، خاصة فى الليل .

- آه . لقد حكى لك أبوك .

- لم يحك لى أبى ؛ لأنه لايعرف شيئاً ، كم هو فى حاجة لأن يعرف .

- انتبه يا شارل ، لقد ذهبت بعيداً .

- ياإلهى ، أنت السيد وتفعل مايجلو لك .

- أنت تعرف يا شارل أننى لا أسخر أبداً من أحد ، ولو فعلت ما يجلو لى

فإن هذا لايلغى سوى .

وهز كتفيه هزة خفيفة :

- كيف تريد أن يدافعوا عن مصالحك ، عندما تهاجم بنفسك ؟
لايمكنك أن تحمى الحارس وتضطاده .

- لماذا ؟

- لأنه .. آه .. يا سيدى ، هذه كلها أشياء لئيمة بالنسبة لى ،
وببساطة فإنه لايعجبني أن أرى سيدى يُكوّن عصابة مع هؤلاء الذين
يعطلون العمل ويفسدونه .

قال شارل هذا بصوت ملىء بالثقة ، وبدأ شخصاً نبيلاً ، لاحظت أنه
يتصرف كما يريد ، وأنه يرى أن هذا حق ؛ ولذا لُذْتُ بالصمت ، فأكمل :
- لدينا واجبات تجاه ما نملك ، لقد علمنى سيدى فى السنة الماضية ،
ولكن يبدو أنه نسى ، يجب أن نأخذ هذه الواجبات مأخذ الجد ، ونتخلى
عن اللهو مع .. وإلاّ أصبحنا غير جديرين بما نملك .
وعمّا الصمت .

- هل هذا هو كل ما لديك لتقوله ؟

- بالنسبة لهذا المساء ، نعم يا سيدى ، ولكن فى أمسية أخرى إذا دفعنى
سيدى ، ربما آتى لأقول له : إننى وأبى سنترك لامورنيير .

وخرج بِخُطَا بطيئة وهو يحينى ، ثم رحت أفكر :

- شارل ، إنه على حق ، ولكن هل هذا ما يسميه شارل بالأملاك ؟

جريت خلفه ، ولحقت به فى الليل ، وبسرعة كى أؤكد على قرارى
المفاجيء .

- أخبر أباك أنني سأعرض « لامورنير » للبيع .

حياني شارل بمهابة ، وابتعد بدون أن يقول كلمة ، وبدا كل هذا عبثاً .
لم تتمكن مارسلين أن تنزل في هذا المساء من أجل العشاء ، وأخبرتني أنها
تعانى ، صعدت مسرعاً وقد ملأنى القلق - إلى غرفتها ، أكدت لى توّاً : « أنه
ليس أكثر من لسعة برد » كما توقعت ، لقد أخذت برداً .

- ألم يمكنك أن تتغطى ؟

- بمجرد أن أحسست بالعرشة الأولى ارتديت الشال .

- ليس من الواجب أن ترتدى الشال بعدها ، ولكن قبلها .

نظرت إلى ، وحاولت أن تبسم . . آه ! لعل يوماً سيئاً للغاية قد بدأ
يجعلها تعانى ، قالت لى بصوت عالٍ : هل تتناسك طالما أنا على قيد الحياة ؟
. . لم أسمعها جيداً . رأيت كل شيء يتفكك حولي ، وكل ما تمسكه
يدى ، لم تعرف يدى ماذا تمسك ، اقتربت من مارسلين ورحت أغطيها
بالقبلات ، لم تتناسك ، وراحت تبكى على كتفى .

- آه ! يامارسلين ! مارسلين ! لنرحل من هنا إلى مكان آخر ، فسوف
أحبك مثلما أحبيتك فى سورنتو . . لقد اعتقدت أنني تغيرت ، أليس
كذلك ، لكن سوف تشعرين أن شيئاً لم يغير حبنا .

ولم أشفِ حزنها . . فهناك أمل ما قد تعلق به .

لم يكن الشتاء قد تقدم بعد ، لكن الجو كان مندياً وبارداً ، وراحت
براعم الورد تنمو بدون أن تتلون ، وأما ضيوفنا فكانوا قد تركونا منذ فترة
طويلة ، لم تعانِ مارسلين إلا من القيام بإغلاق المنزل ، وخلال خمسة أيام
كنا قد رحلنا .



LEADER

مرة أخرى أن أغلق نفسي على حبي ، ولكن كم أنا في حاجة إلى سعادة وسكينة ؟ إنها مارسيلن التي تمنحني ذلك ، كأنها

راحة أبدية لا تشعر أبداً بالتعب ، وكم أحسست أنها متعبة ، وأنها في حاجة إلى حبي ، رحت ألفها بحبي وأخترت الحاجة التي أعوزها ، أحسست بآلامها التي لا تحتمل ، سوف أظل أحبها إلى أن تشفى .

آه ! كم اعتنيت بها عاطفياً ، وفي السهرات الرقيقة ، مثلما يقوم آخرون بإحياء ضيائهم وهم يببالغون في ممارستها . وهكذا طورت حبي ، واستوعبته مارسيلن ، كما قلت ، وكما أملت ، فلا يزال ينبض فيها الكثير من الشباب ، كما كانت تأمل ، لقد هربنا من باريس كأننا نقضى ليلة عرس جديدة ، ولكن منذ اليوم الأول لرحلتنا بدأ الألم يزداد ، واضطررنا أن نتوقف في «نيوشاتل» .

كم أحب هذه البحيرات ذات الضفتين اللازورديتين ! بلا أي رخام ، ومياهها مثل المستنقع اختلطت طويلاً بالأرض ، وتسربت بين عيدان البوص ، كان عليّ أن أجد غرفة من أجل مارسيلن في فندق مريح تطل على البحيرة ، ولم أتركها طيلة النهار .

راحت تتحسن برغم أنني منذ اليوم التالي أحضرت طبيباً من لوزان ،

أبدى الطبيب قلقه ، وبدأ الأمر غير مجدٍ ، حاول أن يعرف شيئاً عن أسرة زوجتي ، هل عرفت حالات عديدة من الدرن ؟ أجبت بنعم . لم أكن متأكداً ، أشعرتني بغم حين قال إننى السبب فى كل هذا . وسألنى عما إذا كنت مريضاً قبل أن أعتنى بهارسلين ؟ بحث له بكل شيء ، برغم أن الطبيب لم يطرح ذلك إلا بشكل عارض ، فإنه أكد لى أن المرض يعود تاريخه إلى فترة زمنية قديمة ، ونصحنا بالجو النقى فى أعلى جبال الألب ، مؤكداً أن مارسلين سوف تبرا ، كنت أرغب أن أقضى الشتاء بأكمله فى «أنجادين» ، خاصة أن مارسلين لم تكن تحتل السفر ، ومع ذلك رحلنا .

كم أذكر كل حدث عشناه على الطريق ، كان الجو ملبداً وبارداً ، فارتدينا أكثر الفراء دفئاً . . . وفى «كوار» لم تتوقف الزوبعة ، فمنعتنا تماماً من النوم ، وأخذت نصيبى من ليلة بيضاء لم أحس فيها بالتعب ، لم أنزعج قط من هذه الضجة ، سوى أن مارسلين لم تجد لها مكاناً فى غرفتى ، حاولت أن أنام برغم الضجة ، وكانت مارسلين فى أشد حاجة إلى النوم . وقبل فجر اليوم التالى رحلنا ، وجلسنا فى نفس الأماكن فى العربة المتجهة إلى «كوار» ، انطلقت الجياد بشكل جيد يسمح لنا أن نصل إلى «سان موريتز» فى يوم واحد .

عبرنا «تفנקسنان» و «لوجوليه» و «سمدان» . . . وأذكر كل شيء ، ساعة بساعة ، شخص يأمل كل ما هو جديد ، ونقاء الهواء ، وصهيل الجياد ، وسط جوعى ولهاث الظهر أمام الفندق ، والبيض المسلوق الذى أحبه فى الشورية ، والخبز والنبيد المثلج ، هذه الأطعمة الخشنة كان تسبب ألماً لمارسلين ، فلم تستطع أن تأكل سوى القليل ، أو لا تأكل شيئاً بالمرّة سوى بضع قطع من البسكويت الجاف التى اشتريتها لحسن الحظ من على

الطريق . كنت أرى غروب النهار ، وسرعة صعود الظل على منحنيات الغابات ، ثم عند المحطة ، أصبح الهواء أكثر حيوية وأكثر حركة . وعندما توقفت العربة انغمسنا بكل قلوبنا في الليل ، وفي الصمت الرخو الهش . . . ليست هناك كلمات أخرى ، فأقل ضجة تأخذني في هذا الجو الغريب الشفاف . وفي المساء نعاود الرحيل ، تسعل مارسلين . . . آه !! إنها لا تتوقف عن السعال ؟ أتذكر عربة مدينة سوسة ، يبدو لي أنني كنت أسعل أكثر منها ، إنها تبذل جهداً خارقاً . . . كم تبدو ضعيفة ومتغيرة ! في الظل أكاد أتعرف عليها بصعوبة ، فقد شحبت ملامحها ، ترى هل أراها هكذا بهذين الثقين السوداوين في مفارشها ؟ آه ! أنها تسعل بشكل مخيف ! هذه هي حصيلة عنايتي بها ، خفت من التعاطف معها ، ففيه تختبئ كل العدوى ، فنحن يجب ألا نتعاطف إلا مع الأقوياء ، حقاً ، إنها لا تستطيع ! ولن يحدث ذلك قريباً . . . ماذا تفعل ؟ . . . تمسك منديلها وتضعه على شفتيها . وتستدير . . . شيء مرعب ! هل سوف تبصق دماً ثانية ؟ أشد المنديل بعنف من يديها ، وأنظر إليه في ضوء المصباح الضعيف . . . لا شيء . . . لكنني أحس بالمعاناة . تجاهد مارسلين بحزن في أن تبسم وتتمتم :

- لا . لا يزال بعد .

وصلنا أخيراً . ليس أمامنا سوى الوقت ، نتهاusk بصعوبة ، ولا تقنعنا الغرف التي تعد من أجلنا ، نقضى فيها الليل وفي الغد نغيرها . لم يبد لي شيء جميلاً ولا غالياً . موسم الشتاء لم يبدأ بعد ، فإن أغلب الفنادق خالٍ من الرواد ، ويمكنني أن أختار ، أخذت حجرتين واسعتين يدخلهما الضوء، وبها أثاث بسيط ، وقاعة كبيرة تؤدي إلى نافذة يمكن أن نرى فيها

البحيرة الزرقاء ، ولا أعرف أى مرتفع بشع هذا ، إنه ذو انحناءات وعرة ومكشوفة تماماً . هناك كنا نعد وجباتنا . كانت الغرفة عالية السعر ، لكن ماذا يهم ؟ لم تكن أبحاثى معى ، لكننا بعنا « لامورنيير » ، وسوف تسير الأمور على ما يرام . . من ناحية أخرى هل أنا فى حاجة إلى مال ؟ هل أنا فى حاجة إلى كل ذلك ؟ . . . لقد أصبحت قوياً الآن . . أعتقد أن تَغْيُراً مالياً كاملاً يجب أن يتم أكثر من تَغْيُـر فى صحة مارسيلين ، إنها فى حاجة إلى مكان فخم ، فهى ضعيفة . . . آه ! فمن أجلها أود لو أنفقت كل ما أملك . . وسرعان ما يتتابنى الخوف والإحساس بالفخامة . لقد غسلتها ، وحممت فيها مشاعرى الحسية ، ثم تمنيتها شاردة .

وبدأت مارسيلين فى التحسن ، وانتصرت عنايتى الصارمة ، وعندما أصبحت قادرة على الأكل ، رحت أحس شهيتها بكلماتى وتوسلاتى ، كنا نشرب أحسن النبيذ ، وتمنيت أن تتذوقه جيداً ، وكم كانت تسلينى هذه الأنوار الغريبة التى تعبر عنها كل يوم ، إن لها عبق نبيذ الراين ، وشراب «التوكى» الذى يملؤنى بالنشوة الحقيقية ، إنه شراب غريب ، لم يبق منه سوى زجاجة ، ولا أستطيع أن أحدد مذاقه الموجود فى الزجاجات الأخرى .

فى كل يوم كنا نخرج فى سيارة ، ثم على زحافة ، وعندما يتساقط الجليد نتلفع بالفراء حتى الرقبة ، وأولى وجهى للنيران ، وقد ملأتنى الشهية ثم النوم ، لم أكن قد تخلت تماماً عن العمل ، وفى كل يوم كنت أخصص ساعة لأنجز ما يجب أن أقوله . لم يكن التاريخ محل نقاش ، فمنذ أمد طويل وأبحاثى التاريخية لم تعد تهمنى إلا كوسيلة للراحة النفسية ، وتساءلت : كيف ارتبطت من جديد بالماضى ؟ عندما تصررت أن المتاعب تراكم ، زعمت بقوة الضغط على الموتى أننى أحصل منهم على بعض

تعليقات الحياة السرية . . الآن فإن الشاب « أما لريك » يمكنه أن يكلمنى ،
وينهض من مقبرته . لم أسمع الماضى قط ، تُرى هل تكفى إجابة قديمة
للرد على سؤال جديد ؟ . وماذا يستطيع الإنسان ؟ هذا هو ما يهمنى
معرفته ، وما قاله الإنسان حتى الآن ، ترى ماذا يمكنه أن يقوله ؟ ألم يجهل
دوماً ما يكونه ؟ ألم يبق له ما يقوله ؟ نحن نتخبط يومياً داخل مشاعر الثراء
الخفى الذى يغطى ويخنق الثقافات والمعنويات .

بدا لى أننى وُلدت من أجل نوع مجهول من الوجود ، اندمجت عاطفياً فى
أبحاثى الصعبة التى أعرف فيها أن على الباحث أن يدفع عن نفسه الثقافة ،
والكياسة ، والمعنى .

لم أستطع أن أتذوق شيئاً آخر سوى بعض الاحتياجات الوحشية ،
ولسبب بسيط لم أرَ فى الشرف سوى القيود والاعتراضات والخوف ، أعجبنى
أن نتحابَّ وكأنه أمر صعب ونادر . بدت عادتنا ذات عامل مشترك وأبدى
متعاقد عليه ، إنها فى سويسرا تمثل جزءاً من التوافق ، فهمت أن مارسلين
فى أمس الحاجة إليها ، ولكننى لم أخف عنها أفكارى ودراساتى الجديدة
لتلك الأفكار . لقد كانت تمتدح هذا الشرف الذى تتنفسه فى نبوشاتل من
خلال الجدران والوجود ، قلت :

- دراستى تكفينى بشكل متسع ، لدى ما يكفى من الشرفاء لدرجة
مثيرة ، وليس لدى ما أخشاه منهم ، ليس لديهم ما يقولونه . . الشعب
السويسرى شريف ! ولا شىء يهمله ، إنه يعيش بلا جرائم ، ولا حكايات ،
ولا أدب ، ولا فنون ، إنه أشبه بزهرية خالية من الورد والأشواك .

كم يضايقنى هذا البيت الشريف ، خاصة ما أعرفه عن ماضيه ، ولكن

خلال شهرين أصبح هذا الملل نوعاً من الصرع ، رحت أفكر في الرحيل .

كنا في منتصف يناير ، ولقد تحسنت مارسيلين كثيراً ، وتلاشت الحمى عنها ببطء ، وبدأ الدم يورد خديها ، مثلما كانت قبل المرض ، لم أجد صعوبة في إقناعها أن كل شيء على ما يرام ، وأن هذا الجو كان مناسباً ، وأنه من الأفضل الآن أن ننزل إلى إيطاليا حيث أرض الربيع الدافئة التي ستساعد على شفائها نهائياً ، لم أجد صعوبة في إقناع نفسي بذلك بعد أن مللت كثيراً من هذا العلو الشاهق .

ومع ذلك ، فالآن ، راح الماضي الكريه يستعيد قوته وسط كل هذه الذكريات التي تغريني ، والتدريبات السريعة في التزحلق ، واللعب في الهواء الجاف ، وتلطخ الجليد ، والمشي الحذر في الضباب ، وصفاء الأصوات الغريب ، وظهور بعض الأشياء المفاجيء . ظل البعض في القاعة وهم يقرءون ويشاهدون المناظر الرائعة عبر الزجاج ومناظر الجليد التي تخفى معالم العالم الخارجى . جمعت الأفكار بشكل حسى ورحت أتزحلق على الجليد معها ، فوق البحيرة النقية المحاطة بأشجار الأرز الضائعة ، ثم أعود معها في المساء .

كان النزول إلى إيطاليا بالنسبة لنا أشبه بدوامات السقوط . بدا الجو جميلاً ، رحنا نغوص في الهواء الدافئ والكثيف ، بدت الأشجار متجمدة في أطرافها : الأرز ، والصنوبر ، بدت خضرة الأشجار الداكنة غارقة في الليل ، وأن على أن أترك الحياة المجردة ، وبرغم الشتاء فقد رحت أتخيل العطور تفوح في كل مكان ، آه ! منذ وقت طويل لم نضحك إلا من الظلام ! لقد أثملنى الحرمان ، وأسكرنى العطش ، مثلما يسكر آخرون من

النبيذ . كانت حياتي المالية مستقرة ، وعلى عتبة هذه الأرض الزاخرة والواعدة لشهيتي المتفجرة ، يكمن حب ضخم يعصف بي ، ويتسرب أحياناً من أعماق جسدي إلى رأسي ويخترق أفكاري .

لم يستغرق هذا الوهم الربيعي سوى القليل من الوقت ، واستطاع أن يزعجني تغير الموقف المفاجيء للحظة ، ولكن ما إن غادرنا ضفتي بحيرات « بلاجيو » و « كوم » حيث أقمنا بضعة أيام حتى وجدنا الشتاء والمطر ، أما المطر الذي عانينا منه فقد كان في « أنجادين » ، وهو ليس أكثر جفافاً وخفة مثلما هو في أعالي الجبال ، ولكنه رطب وجاف ، مما جعلنا نعاني . راحت مارسيلن تسعل ، وكى نهرب من البرد توجهنا نحو الجنوب ، ثم تركنا ميلانو إلى نابولي التي كانت - تحت أمطار الشتاء - أكثر المدن التي عرفتھا مرارة ، وعشنا مللاً لا اسم له ، ثم آثرنا العودة إلى روما لنبحث عن الدفء والراحة ، فأجرنا غرفة واسعة فوق مرتفعات « بيشينو » ، ذات موقع متميز ، ولم أشعر بالارتياح في فنادق فلورنسا . وأجرنا « فيلاً » رائعة لمدة ثلاثة أشهر تطل على « وادي شيلي » . لم نبق هناك أكثر من عشرين يوماً ، وفي كل مرحلة جديدة كنت أعتني بكل شيء ، فقد كان علينا أن نعاود الرحيل ، لذا راح شيطان قوى يدفعني للرحيل ؛ لم نحزم معنا سوى ثمانى حقائب ، واحدة منها مليئة بالكتب ، لم نفتح أيّاً منها طوال الرحلة .

لم أذكر أن مارسيلن انشغلت بأمر المصاريف ، ولم أحاول أن أتولاها ، فهي منهكة تماماً ، وكنت أعرف أنها يمكنها أن تفعل شيئاً ، وتوقفت عن الاعتماد على نقود مزرعة لامورنيير ، فالمزرعة لم تعد تجلب شيئاً ، أما بوكاج فقد كتب أنه لم يجد مشترياً ، ها هو ذا المستقبل يؤكد أن المصاريف ستكون أكثر . آه ! كما أنا في حاجة إلى الكثير ودفعة واحدة ! رحت أفكر وأتأمل ،

وأنا أعانى وأترقب ، فلا شك أن حياة مارسيلين الهزيلة تتبدد أسرع من ثروتى .

وبرغم أنها كانت تلقى منى كل عناية ، فإن هذه التنقلات السريعة كانت تتعبها ، ولكن الذى أتعبها أكثر - وأستطيع أن أبوح بذلك الآن - هو الخوف من أسلوبى فى التفكير .

قالت لى يوماً : أنا أفهم مذهبك ، مذهب العصر ، إنه رائع ! ثم أضافت بصوت خفيض ومحزن : ولكنه مذهب الضعفاء .

أجبت على الفور رغماً عنى : هذا هو المفروض .

ورحت أتشمم ، تحت تأثير وقاحة كلمتى ، هذا الكيان الحساس ينثنى ويرتعد . آه ! ربما تفكرون أننى لم أحب مارسيلين ، أقسم إننى أحببتها بقوة ، ولم تكن ولم تَبْدُ لى جميلة مثلما كانت فى هذه المرحلة . لقد انتشر المرض وأنهاك ملامحها ؛ لذا لم أتركها ، ورحت أحوطها بكل عناية ، وأحميها وأسهر عليها فى كل لحظة ، ليلاً ونهاراً ، كان نومها خفيفاً ، حاولت أن أجعل نومى أكثر خفة ، أرقبها وهى تنام ، وأستيقظ قبلها ، وعندما أتركها أحياناً ساعة أسير بمفردى فى الحقول أو فى الشوارع ، ولا أعرف أى أهمية للحب والخوف أن تشعر بالملل الذى يربطنى نحوها بسرعة ، وأحياناً أنادى إرادتى ، وأحتج على هذه السلطة وأنا أقول لنفسي : أليس هذا هو ما تساويه ؟ رجل مزيف كبير ، يجعلنى أخشى أن يدوم غيابى ، وأعود وذراعى محملتان بالزهور ، زهور حديقة لم تتفتح أزهارها . أو نضجت نباتاتها قبل الأوان . . . نعم . أقول لكم : لقد أحطتها برعايتى ، ولكن كيف أعبر عن هذا ؟ لقد قللت من احترامى لنفسي ، وأكثر من

تبجيلها ، ومن يخبرنى كم من العاطفة وكم من الأفكار يمكنها أن تسكن فى الإنسان ؟

منذ أمد طويل انتهى الطقس السيئ ، ووصل الربيع ، أزهرت أشجار اللوز ، إنه أول مارس . فى الصباح أتوجه إلى ميدان « إسبانيا » ، أرى الفلاحين يهزون الأغصان البيضاء ، وزهور أشجار اللوز محملة فى سلال البائعات ، وكم تبلغ سعادتى حين أشتري باقة يحملها لى ثلاثة رجال ، وأعود بكل هذا الربيع وقد تشابكت الأغصان عند الأبواب ، وتسبح البتلات فوق السجاد ، فأضع منها فى كل مكان ، فى الزهريات ، وتصطبغ القاعة باللون الأبيض ، فى اللحظة التى تغيب فيها مارسلين ، ثم تلهينى فرحتها حين أسمعها قادمة ، ها هى ذى تفتح الباب ، ماذا بها ؟ إنها تتأوه .. تنفجر منتحبة :

— ماذا بك يا مارسلين . . . ؟

أسرع نحوها ، وأغطيها بالمداعبات الرقيقة ، وكأننى أعتذر عن دموعها . قالت :

— هذه الرائحة تؤلمنى ، إنها النهاية ، هناك رائحة غامضة .

وقبل أن تكمل أمسكت كل الأغصان البريئة الهشة ورحت أحطمها ، وكسرتها جميعاً وألقيتها ، فى حين تفجر الدم فى عينيها ، آه ! لقد حل عليها ربيع لم تعد تحتمله .

كنت أتألم دوماً من هذه الدموع ، وأعتقد الآن أننى أشعر بالذنب ، إنها تندم على مواسم الربيع المنصرمة ، رحت أفكر أن البهجة الكبرى لا تحل إلا على الأقوياء ، أما هى فلا تسكرها الفرحة ، مهما حدث ، ولم تعد تحتمل ما

يمكن أن نسميه السعادة ، وما أطلق عليه « الراحة » . . أنا الذى لم أكن
أنشد سوى الراحة .

بعد أربعة أيام ، رحلنا مرة أخرى إلى « سورنتو » ، وفشلت فى أن أجد
الدفء . بدا كل شىء مرتعداً ، فالرياح لا تكف عن الهبوب ، مما أنك
مارسلين كثيراً ، أردنا أن ننزل فى نفس الفندق الذى نزلنا فيه أثناء رحلتنا
السابقة ، وسكننا نفس الغرفة ، ثم رحنا نتطلع بدهشة إلى الديكور المندى
أسفل سماء ملبدة بالغيوم ، فها هى ذى حدائق الفندق مبللة وتبدو ساحرة
عندما ننزه حبنا فيها .

حاولنا أن نصل إلى بحر باليرمو الذى يوفر لنا المناخ المطلوب ، فعدنا إلى
نابولى ، ومن هناك أردنا أن نبحر ، لكننا تأخرنا ، لم أشعر بأى ضيق ،
فناپولى مدينة حية لا تعود أبداً إلى الورااء .

كنت أجلس على مقربة من مارسلين طيلة النهار ، وفى الليل تنام مبكرة
تعباً ، فأروح أرقبها وهى نائمة ، وأحياناً أنام ، وعندما تبدأ فى اللهاث
أحس أنها نائمة ، فأنسحب بخفة ، ثم أرتدى ملابسى وسط الظلام ،
وأتسلل إلى الخارج كاللصوص .

فى الخارج أطلق تنهيدة ، وأتساءل : ماذا أفعل ؟ لا أعرف الإجابة ،
فالسما قد غامت ، وتخلصت من سُحبها ، وبدأت أشعة القمر تملؤها .
أحياناً أمشى بلا هدف ، وبلا رغبة أو خشية ، وأنظر إلى كل شىء بعيون
جديدة ، وأترقب فى كل ليلة بعينين متبھتين ، أتنفس رطوبة الليل ، وأضع
يدى على أشياء ، وأنا أتحول فى المكان .

فى آخر ليلة أقمناها فى نابولى قمت بجولة حرة ، وعندما عدت وجدت

مارسلين تبكى ، أخبرتنى أنها خائفة ، وأنها استيقظت فجأة وأحست بى هناك . رحلت أهدىء من روعها ، وأحدثها عن غيابى ، وعدتها ألا أتركها ، ولكن فى أول ليالىنا فى باليرمو ، رحلت أخل بوعدى ، فخرجت . كانت أشجار البرتقال تطلق زهورها ، وتدفع الرياح إلى خياشيمى بروائحها .

لم نبقَ فى باليرمو سوى خمسة أيام ، ثم اتجهنا إلى « تاورمين » التى اشتقنا لرؤيتها ، هل قلت إن القرية معلقة فى الجبل ؟ كانت المحطة تطل على شاطئ البحر ، اصطحبتنا العربة إلى الفندق مباشرة نحو المحطة حيث رحلت أجمع حقائبنا ، ظللت واقفاً فى العربة أتحدث مع الحوذى ، إنه صغلى صغير، جميل كقصيدة ثيوقراط، انطلق يتكلم وكأنه ثمرة طازجة ، قال بصوت ساحر وهو ينظر إلى مارسلين تبعد :

- كم هى جميلة هذه السيدة !!

أجبت : وأنت أيضاً جميل يا فتى !

وبرغم أننى كنت قريباً منه فلم أستطع الإمساك به ، أو أن أجذبه ، تركنى أفعل وهو يضحك . وقال :

- كل الفرنسيين عُشاق .

أجبت وأنا أضحك :

- لكن ليس كل الإيطاليين عُشاقاً .

رحلت أبحث عنه فى الأيام التالية ، لكننى لم أستطع أن أجده .

تركنا « تاورمين » إلى « سيراكوزة » ، ثم كان علينا أن نكرر رحلتنا الأولى

بنفس الخطأ ، ونبدأ حبنا من جديد ، ومن أسبوع لأسبوع ، مثل رخلتنا الأولى عندما كنت أتماثل للشفاء ، ومن أسبوع لآخر رحنا نتجه نحو الجنوب ، في حين كانت حالة مارسيلين تزداد سوءاً .

تملكتنى رغبة جنونية يحكمها العند الأعمى ، خاصة أننى حاولت أن أقنعها أنه يلزمها الضوء والحرارة ، ورحت أتذكر فترة نقاهتى فى بسكرة . . . كان الجو دافئاً أحياناً أقرب إلى باليرمو ، كان معتدلاً ، وقد أعجب مارسيلين . لعلها يمكن أن تتحسن هناك ، لكن هل أستطيع الاختيار ، وأن أقرر رغبتى ؟

كان البحر فى سيراكوزة والخدمة من الأمور العادية ، وأجبرتنا السفن أن تنتظر ثمانية أيام ، فى كل لحظة كنت أقضيها قريباً من مارسيلين ، رحت أقضيها فى الميناء القديم ، ميناء صغير تفوح منه رائحة الدهانات ، ويمتلئ بالمتشردين ، والبحارة السكارى . كان مجتمعاً مليئاً بأناس يتمتعون بصحبات جميلة ، كم أنا فى حاجة أن أفهم لغتهم ، وأن يتذوقها جلدى جيداً ، أما بشاعة المشاعر فتبدو فى عيني مخادعة ، وتبدو عليها صحتها لا بأس بها . قلت لنفسى : إن هذه الحياة البائسة لا يمكن أن تمثل بالنسبة لهم سوى الذوق الذى أتمتع به . آه ! أردت أن أجلس معهم تحت المائدة ، وألاً أستيقظ إلا على رعشة الصباح الحزينة ، ورحت أخفى أمامهم رعبى المتنامى ، من كثرة الراحة ، وهذه الموهبة التى تمثل لى حماية من صحتى التى جعلتنى غير مجد ، ومن كل التحذيرات التى نمارسها كى نحفظ أجسادنا من الاتصال المفاجئ بالحياة . تخيلت وجودهم من بعيد ، حاولت أن أتبعهم ، وأنا أغوص فى سكرتهم ، ثم فجأة تراءت لى مارسيلين ، ماذا تفعل فى هذه اللحظة ؟ إنها تعانى ، ولعلها تبكى . . . قمتُ مسرعاً ، ورحت

أجرى ، وعدت إلى الفندق ، وبدأ لى أنه مكتوب على الباب « هنا . . لا يدخل المساكين » .

تستقبلنى مارسلين بنفس الطريقة . . لا تبدو عليها الثقة أو الشك ، تحاول أن تبسم برغم كل شيء ، تتناول وجبتها ، وأقوم بخدمتها ، ويبدو الفندق المتوسط فى أفضل حالاته ، وأروح أفكر وأنا أكل : قطعة خبز وجبن ، تكفيها ثمرة شمار ، وتكفينى مثلها ، وربما كان هناك على مقربة منها شخص جوعان ، وهناك من ليس لديه هذا الرزق البسيط ، وها هو ذا على مائدتى شيء أحفظ به طوال ثلاثة أيام ، حاولت أن أحطم الجدران ، وأن أطرده الضيوف ؛ لأن الإحساس بالجوع يجعلنى أعانى بشدة ، فأعود إلى الميناء القديم ، وأطلب لقيات صغيرة أملأ بها الجيوب .

فقر الإنسان هو عبوديته للأكل ، إنها تجعله يقبل عملاً بلا متعة ، فكل عمل ليس مبهجاً يثير الكراهية ، رحت أقول لنفسى ، لا تفعل هكذا ، فهذا أمر يثير الملل ، كم أحلم لكل إنسان بهذا الفراغ : دون تفسير . يا للخطيئة ! . . ويا للفن ! .

لم تناقشنى مارسلين فى أفكارى عندما عدت من الميناء القديم ؛ ولم أخف عنها أى بشر مساكين أحاطوا بى ، كلهم من البشر ، فهمت مارسلين جيداً ما أحاول أن أكتشفه ، وكأننى جعلتها تؤمن بالفضائل التى تخترعها حسب رؤيتها . قالت لى :

- أنت لا تكون سعيداً إلا عندما ترتكب بعض الرذائل ، ألا تفهم أن نظرتنا تنمو وتنتشر إلى حد أن نصبح نحن ما نزعج أن نكون ؟

حاولت أن أفهمها أنها ليست على حق ، ولكن يجب أن أقول : إنه في كل كيان تبدو لي الغريزة المضاعفة أكثر صفاء .

تركنا « سيراكوزة » وقد أغوتنا ذكريات الجنوب . عند البحر تحسنت مارسيلين . . رأيت صوت البحر هادئاً . أسمع صوت الهدير والضجيج المتموج ، وغسيل الكوبرى ، عند الواحة ارتفعت فرقعات الأقدام الحافية للغسّالين . رأيت مالطة بيضاء . ثم اقتربنا من تونس ، وأدركت كم تغيرت !

كان الجو حاراً ورائعاً ، ويبدو كل شيء جميلاً ، يهتز العشب بتلذذ ، حاولت طويلاً أن أقول لكم كيف أصبحت . آه ! ارتبكت روى لهذه العقلانية غير المحتملة ! . . . فلم أحس بشيء من هذا النبل فى داخلى .

فى تونس ، النور أكثر كثافة وقوة ، والظل ممتد ، ويبدو الهواء أكثر نقاءً ، يلمع فيه كل شيء ويغوص ويسبح . هذه الأرض النشوى تبدو راضية ، ولكنها لا تعبر عن أى رغبة ، وترتفع فيها نسبة الرضاء .

إن أرضى فى إجازة من العمل الحرفى ، كم أحتقر هؤلاء الذين لا يعترفون بالجمال الذى فرض نفسه . الشعب العربى يعيش فنه ويحياه ، ويتغنى به ويشدو كل يوم ، إنه لا يحدده أبداً ولا يحتفظ به فى أى عمل ، وهذا سبب غياب الفنانين الكبار . . . كم آمنت أن الفنانين الكبار هم الذين يُكسبون الأشياء جمالاً طبيعياً من خلال ما يقولونه ويرونه : « كيف لم أفهم حتى الآن أن هذا كان جميلاً ؟ » .

كان الليل فى القيروان - التى لم أكن قد عرفتُها جيداً ، حين ذهبت بدون مارسيلين - جميلاً للغاية ، وكانت حرارة الساحل المنخفضة قد أضعفت

مارسلين كثيراً ، حاولت أن أقنعها بما يلزمنا ، وهو أن نصل إلى « بسكرة » بأسرع ما يمكن ، فقد كنا في بداية شهر أبريل .

بدا السفر طويلاً ، وصلنا في اليوم الأول إلى قسطنطينة ، وفي اليوم التالي تعبنا مارسلين كثيراً ، ولم نكن قد وصلنا إلا إلى « القنطرة » ، رحنا هناك نبحث عن ظل ظليل أكثر فوجدناه ، راح هذا الظل يزحف إلينا ، ومن فوق المنحدر الذي نجلس عليه كنا نرى الوديان المتعانقة .

في هذه الليلة لم تقدر مارسلين على النوم ، وتملكها صمت غريب ، وكانت أقل ضجة تُسبب لها إزعاجاً ، كنت أخشى أن تُصاب ببرد ، وسمعتها تسعل في سريرها ، وفي اليوم التالي رأيته شاحبة ، فرحنا .

وصلنا بسكرة التي كم نشدتها . . . ها هي ذى . . ها هي ذى الحديقة العامة ، والمقعد ، عرفت المقعد الذي جلستُ عليه في الأيام الأولى من نقاهتي ، ماذا يربطني به إذن ؟ . . . فأنا لم أفتح كتاب هوميروس منذ ذلك الحين ، وها هي ذى الشجرة التي مسست لحاءها ، كم كنت ضعيفاً آن ذاك . . . ! ها هم الأطفال . . . لا لم أتعرف عليهم . كم تبدو مارسلين مَهِيبةً ، لقد تغيرت مثلي . لماذا تسعل في هذا الجو الجميل ؟ ها هو ذا الفندق . ها هي ذى غرفنا وشرفاتنا . فيم تفكر مارسلين ؟ لم تقل لي كلمة حتى وصلت إلى غرفتها ، فتمددت على السرير ، وبدت تَعَبَةً وقالت إنها تريد أن تنام قليلاً ، فخرجت .

لم أتعرف على الأطفال ، لكن الأطفال عرفوني ، وبمجرد وصولي أحاطوا بي . تُرى هل يمكن أن يكونوا هم ؟ لقد كبروا ، ربما أكثر بعامين ، يا له من أمر مستحيل متعب ! ويا لها من خطايا ! ترى أى بشاعة تبدو فوق هذه

الوجوه التى ينفجر منها الشباب ؟ أى أعمال قاسية تنهك هذه الأجسام الجميلة ؟ رحت أسأل . . « بشير » صبى يعمل فى مقهى ، « وعاشور » يكسب قروشه القليلة بكسر حجارة الطريق ، أما « عطار » فقد فقد عينه ، وأما صادق فيساعد أخاه الأكبر فى بيع الخبز فى السوق ، بدا عليه أنه أصبح غيباً ، وأما نجيب فيعمل جزاراً مع أبيه ، وقد أصبح بديناً ودميماً ، إنه ترى ولا يريد أن يتكلم إلى رفاقه الذين خاصمهم . . كم من السمات الشريفة تبدو غيبة ! ترى هل أجد بينهم ما أكرهه فيما بيننا ؟ وماذا عن أبى بكر ؟ لقد تزوج وهو لم يبلغ الخامسة عشرة . يا له من أمر جسيم ! ومع ذلك قابلته فى المساء ، راح يشرح أن زواجه كان بمثابة صفقة تجارية ، إنه - كما أعتقد - واجب مقدس ، ولكنه يشرب ويفقد وعيه . . وماذا بقى أيضاً ؟ إنها الحياة ! أحسست أن حزنى الذى لا يحتمل قد دفعنى لرؤيتهم ، لقد كان « مينالك » على حق ، فالذكرى ابتداء الأسى .

وماذا عن مختار ؟ لقد خرج من السجن ، واختفى ، ولم يتفق الآخرون معه ، أردت أن أراه ، لقد كان أكثرهم جمالاً ، هل سوف يعرفنى ؟ لقد وجدوه . . ترى هل سيصبحوننى إليه ؟ لا ! لم تبدُ لى ذكرياتى رائعة ، كانت قوته وجماله رائعين . . ابتسم حين تعرف على :

- ماذا فعلت قبل أن تدخل السجن ؟

- لا شىء .

- هل سرقت ؟

- احتج .

- ماذا تفعل الآن ؟

ابتسم .

- إذن فليس لديك ما تفعله . . سوف تصحبنا إلى توجورت .

لم تتحسن مارسلين ، ولم أعرف ماذا يحدث لها ، وعندما عدت في تلك
الأمسية إلى الفندق ، راحت تضغط على يدي دون أن تقول كلمة ، وقد
أغلقت عينيها ، كشف كمها الواسع عن ذراعها التي أصابها الهزال ،
داعبتها وضممتها طويلاً ، كطفل نريده أن ينام . أهو الحب أم المعاناة؟ أم
الحمى التي تجعلها ترتعد هكذا ؟ . . . ربما كان هناك وقت . ألن أتوقف؟
لقد بحثت ووجدت ما هي قيمتي . إنها نوع من العناد الزائد ، لكن كيف
أقول لمارسلين إننا سنرحل في الغد إلى توجورت ؟

إنها الآن نائمة في الحجرة المجاورة ، القمر مشرق منذ وقت طويل
ويضيء الشرفة بكاملها بضياء يثير الخوف ، ولا يمكن أن يختفى . . كان
بغرفتي بلاط أبيض ، بدا الضوء متسللاً من النافذة المفتوحة ، وقد غطى
الغرفة حتى الباب ، لقد دخل قبل عامين بنفس الطريقة . . . نعم، إنه
يتقدم الآن ، وعندما قمت لأنام أسندت كتفي على الباب . . . وتطلعت
إلى أشجار النخيل . . . ترى أى كلمات حفظتها في هذا المساء؟ . . آه !
نعم ، كلمة السيد المسيح للقديس بيار : « الآن سوف تركز نفسك ،
وستذهب إلى حيث تشاء » . ترى أين أذهب ؟ أين أريد أن أذهب ؟ لم
أقرر . إلى نابولي . في المرة الأخيرة وصلت إلى بوستوم ذات يوم وحدي . .
ورحت أبكى أمام الحجارة ! وبدا الجمال القديم بسيطاً ، وراقياً ، ومُبهِجاً ،
ومهجوراً ، وأحسست بالفن في داخلي ، هل أضع شيئاً مكان آخر ؟ ما
عادت الأشياء كما كانت ، ابتسم ، الابتسامة مشرقة ، يا إلهي ، أعطني
القدرة لمعرفة هذه الأجناس الجديدة .

فى صباآ الؤوم التالى ركبنا العربفة ومعنا مختار الذى كان سعفداً وكأنه الملك .

مررنا ببلاذ كثرفة على الطرىق : « شفعا » ، « كتل ءور » ، « معزفر » . . بءا الأمر فر محتمل . . فهذه الواآات تثر الضحك ، لفس بها سؤى الرمال والآجارفة ، وبعض الأءغال التى تنمو ففها زهور غربفة ، وفى بعض الأآفان ففآول النآفل إلى مخابفء ، كم أفضل الواآة فى الصآراء . . هذا البلد ذو المآء الآالء والروعة الأءفة فبءو ففه آهء الإنسان قفبآاً وبائسباً . الآن ففإن كل الأرض الأآرى تثر فف الملل .

قالت مارسلفن : « هل آآب كل ما هو فر آدمف ؟ » .

راآت تنظر إلى نفسها ، وبكل نفم .

بءا الآو مزعآباً قلفلاً فى الؤوم التالى ، بمعنف أن الرفاآ اشءءت ، وتلبء الأفق بالسآب ، وراآت مارسلفن آعانف ، فقد راآت الرمال التى فتنفسها آآرقها ، وتؤلّم آنآرتها ، وتعكس آثار الآعب فى نظرتها ، وبءا هذا المنظر العءوانف كأنه فقتلها ، لكن الآن فبءو الوقت متأآراً ففما ففعلق بالعودة ، فآلال بضع ساعات سنكون فى فوآورف .

. لا أءكر الففصفلات آفءاً بشأن هذا الآزء الآخر من الرحلة ، أءكر المناظر فى الؤوم التالى ، وما فعلته فى فوآورف . وأءكر أنف فءرعت بالصبر آفءاً .

اشتء البرء فى الصباآ ، وفى المساء هبت رفآ عاتفة ، ونامت مارسلفن بعء أن أنهكها السفر بمآرء وصولها ، فمنف أن أآء فنءقاً مرفآاً ، بءت غرفتنا مخففة ، آزاها الرمل والشمس والذباب ، وكل شفء قءر وفر

منعش ، لم يتغير فيها شيء منذ الفجر . أعددت الطعام ، لكن كل شيء بدا رديئاً لما رسلين ، ولم أستطع أن أجعلها تتخذ قراراً ، أعددنا الشاي معاً ، وانشغلت بالاعتناء بها ، وفي العشاء تناولنا بعض الكعك والشاي الذي أكسبته المياه القدرة طعماً غير مستساغ .

وفي ليلة أخرى ، ظللت حتى المساء قريباً منها ، وفجأة أحسست بخوارٍ في قواي ، ترى أهو طعم الرماد ، أم التعب ، أم الحزن من الجهد غير الآدمي ؟ أكاد أستطيع رؤيتها ، وأعرف جيداً أن عينيّ بدلاً من أن تبحثا عن نظراتها فإنهما تركزان فوق فتحتي أنفها السوداءوين . كانت تعبيرات وجهها قائمة ، ولم تكن تنظر إليّ . أحسست بمعاناتها وأنا ألمسها ، راحت تسعل كثيراً ، ثم نامت ، ومن لحظة لأخرى تهزها الرعشات .

يمكن أن يكون الليل سيئاً ، وقبل أن يتأخر كنت أود أن أعرف إلى أين أتوجه فأخرج . وأمام باب الفندق ميدان توجورت ، والشوارع ، والجو ، يبدو كل شيء غريباً لدرجة تجعلني أحس أنني لست الذي يراها ، وبعد لحظات أعود ، وأرى مازسلين تنام هادئة ، وأحس بالخوف فوق هذه الأرض الغريبة التي ينفجر فيها الخطر ، يا له من أمر عبثي ! أحس بشيء يكتمني فأخرج .

في الميدان تنتابني مشاعر مريرة ، الميدان صامت ، تعزف الرياح موسيقا غريبة تمزق المكان ولا أعرف من أين تجيء . . أرى شخصاً يقبل نحوي ، إنه مختار ، قال إنه ينتظرني وإنه اعتقد أنني سأخرج ، إنه يعرف توجورت جيداً ، وكثيراً ما جاء إليها ويعرف أين يصحبنى ، فتركت نفسي له .

سرنا في الليل ، ودخلنا مقهى عربياً انبعث منه الموسيقى ، ترقص فيه

نساء عربيات ، هل يسمون هذه الحركات ذات الوتيرة الواحدة رقصاً ؟
أمسكتنى واحدة منهن بيدي ، وتبعتها ، إنها عشيقة مختار الذى صحبتها ،
ودخلنا غرفة ضيقة بها قطعة أثاث واحدة هى السرير ، سرير منخفض
جلسنا عليه . هناك أرنب أبيض محبوس فى الغرفة ، هاج فى البداية ثم
سكن وجاء يأكل من يد مختار ، جاء والنا بالقهوة ، وبينما راح مختار يداعب
الأرنب جذبتنى المرأة نحوها .

آه ! يمكن أن أتظاهر بالسكوت ، لكن ماذا يهم فى هذا الأمر ؟ هل
يمكن أن يصبح حقيقة ؟

عدت إلى الفندق ، وبقي مختار هناك طيلة اللّيل ، كان الوقت متأخراً ،
هبّت رياح شديدة مشبعة بالرمل والزوابع برغم الليل ، وما إن مشيت حتى
غرقت فيها وهولت لأعود ، وسرت فى التيار ، ربما استيقظت . . . ربما
كانت فى حاجة إلى ؟ لا . . فممر الغرفة مظلم . سمعت صفير الرياح وأنا
أفتح ، دخلت برقة فى الظلام ، ما هذه الضجة ؟ لم أعرف سعالها ،
فأضأت النور .

كانت مارسلين جالسة القرفصاء فوق سريرها ، وقد وضعت إحدى
يديها النحيلتين فوق مسند السرير فى حين غرقت يداها وقميصها فى فيضان
الدماء ، وبدا وجهها متسخاً ، أما عيناها فقد اتسعتا بشكل بشع ، ولا
أعرف أى صرخة ألم أثارتنى فى صمتها . بحثت فى وجهها الشفاف عن
مكان صغير أطبع عليه قبلة ، انطبع مذاق عرقها على شفתי ، غسلت
ورطبت جبهتها ووجنتيها على السرير . انحنيت ولممت المسبحة التى
اشتريتها من باريس والتى سقطت منها ، وضعتها فى يدها المفتوحة ، ولكن

يدها انبسطت ! لم أعرف ماذا أفعل ؟ وددت أن أطلب النجدة . . سقطت
يدها علىّ في يأس شديد ، ترى هل تصورت يائسة أنني أريد أن أتركها ؟
قالت :

« آه ! يمكنك أن تنتظر أيضاً » . . أحست أنني أريد أن أتكلم ،
فأضافت : « لا تَقُل شيئاً ، كل شيء على ما يرام » . ومن جديد للممت
المسبحة ، ثم تركتها من جديد . ماذا أقول ؟ لقد سقطت ، انحنيت
عليها ، ورحت أضغط على يدها .

تركت نصفها على اللوح ، والنصف الآخر على كتفى ، وبدت نائمة
قليلاً . . ثم ظلت عيناها مفتوحتين .

وبعد ساعة انسابت يدها من يدي ، واستقرت على قميصها ، بعد أن
مزقت الدانتلا ، إنها تختنق . وفي الصباح انتابها التقيؤ الدموي .

لقد انتهت حكايتي . ماذا أضيف ؟ القبور الفرنسية في
تورجوت بشعة ، فقد غطتها النيران . حاولت أن أنتزعها بكل

ما بقى لي من قوة واهنة في هذا المكان ، لقد استراحت في القنطرة ، في ظل
حديقة خاصة كانت تحبها ، حدث هذا منذ ثلاثة أشهر ، هذه الأشهر
الثلاثة تبدو وكأنها قد ابتعدت لعشر سنوات .

ظل ميشيل صامتاً فترة طويلة ، وسكتنا نحن أيضاً ، أصاب كُلاً منا
أسى غريب ، لقد حكى ميشيل حكايته بشكل عقلاني ، ولا نعرف كيف
نتأكد من التبريرات التي قدمها لنا ، والتي تبدو تقريباً ضالعة ، لقد أنهى
قراءة النص دون أي رجفة في صوته ، وبدون أن نشهد عليه أي حركة أو أي
انفعال يزعمه ، تملكته كبرياء جنونية لم تؤثر فينا بالمرّة ، حاول إثارة عواطفنا
بدموعه ، لكن أبداً ، لم أستطع أن أميز شيئاً فيه حتى الآن فيما يتعلق
بالكبرياء ، والجمود ، والعفة .

أكمل بعد قليل :

ما يخيفني هو أنني ما زلت شاباً ، ويبدو لي أحياناً أن حياتي الحقيقية لم
تبدأ بعد . أبعادوني عن هنا الآن وأعطوني أسباب وجودي ، فأنا لم أعرف
كيف أجده ، لقد تخلصت منه قدر الإمكان ، لكن ماذا يهم ؟ كم أعاني

من هذه الحرية ! صدقوني كم أنا مرهق من جريمتي ! من فضلكم سموها هكذا ، ولكن يجب أن أبرهن لنفسي أنني لم أتجاوز حقي .

لقد كان لدى أثر فكري عميق عندما عرفتموني أول مرة ، وأنا أعرف أن هذا يصنع الرجال الحقيقيين ، لكنني لم أبلغ هذا الأمر بعد ، والسبب على ما أعتقد هو المناخ ، فلا شيء يُجَبِّط أكثر من الفكر الذي يلحّ على الإنسان ، فكم من لذة تطارد الغريزة ، تحوطها الروعة والموت . أحس الآن بالسعادة ، وأرغب أن أهجرها ، أنام وسط النهار كي أقضي وقت فراغي الذي لا يطاق .

هأنذا هنا ، انظروا إلى الحصى الأبيض الذي أضعه في الظل ، كم أمسكت بالزبد بين يدي حتى يتلاشى ، فأعاود الأمر من جديد ، أبادل الحصى ، وأحاول أن أبلل التي خفّت برودتها .

مر الوقت ، وحل المساء . . خذوني من هنا ، فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك وحدي ، لقد تحطم شيء ما في إرادتي ، لا أعرف أين أجد القوة لأبتعد عن القنطرة ، أحس أحياناً بالخوف ؛ لأنني لا أستطيع الانتقام ، أريد أن أبدأ من جديد ، أريد أن أتخلص من بقايا ثروتى . انظروا . . فهذه الجدران لا تزال مفتوحة . . هنا لا أرى شيئاً تقريباً . صاحب فندق نصف فرنسي ، منحني قليلاً من الطعام ، وأحضر لي الطفل الذي رأيتموه يهرب ليلاً ونهاراً مقابل بعض القروش . هذا الطفل الذي يبدو متوحشاً مع الغرباء يبدو لطيفاً وفيّاً . اخته اسمها « ولد نايل » تذهب في كل عام إلى قسطنطينة ، إنها جميلة ، وكم عانت في الأسابيع الأولى ، وتجيء أحياناً لقضاء الليل معي ، ولكن أخاها الصغير « على » فاجأنا ذات صباح معاً ،

فثارت غضبته ، ولم يعد طوال خمسة أيام برغم أنه لم يعرف كيف رأى أخته ،
كان قبل ذلك يتكلم بلهجة ومعنى ، هل هو غيور ؟ لقد بلغ المهرج هدفه ،
فنصفه متضايق ونصفه الآخر يخاف أن يفقدني ، بعد هذه المغامرة ابتعدت
عنى الفتاة غير غاضبة ، ولكن فى كل مرة أقابلها تضحك وتخرج بسبب
أخيها . . ولعلها على حق .



فوق

ليس من السهل أبداً ترجمة
أدب أندريه جيد !

أندريه جيد

لذا لم يقترب من ترجمة أعماله سوى عمالقة الترجمة في اللغة العربية مثل
الدكتور طه حسين ، ومحمود على مراد . والدكتور حمادة إبراهيم ، ونظمي
لوقا ، ونزيه الحكيم .

ومن تقع المهمة ثقيلة على أى مترجم يحاول الخوض في بحر أندريه جيد ،
بعد أن سبّح فيه هؤلاء العمالقة قبل سنوات . ولعله لهذا السبب ظل إبداع
أندريه جيد بعيداً عن القارئ العربي ؛ وذلك لصعوبة ترجمته ،
برغم أهميته الشديدة في أدب القرن العشرين ؛ لذا فمن المهم أن نقدم
للقارئ العربي نموذجاً من أدب أندريه جيد ، وهو الحائز على جائزة
نوبل في الأدب عام ١٩٤٧ ، مع التركيز على رواية « اللا أخلاقي » . . .

ومن خلال هذه الرواية يمكن أن ندرك أن إنتاج أندريه جيد هو حياته ،
وأنه لا انفصام بينهما ، فأكثر ما جاء في هذه الرواية بمثابة سيرة ذاتية لتجربة
الكاتب الخاصة ، التي عبر عنها في الكثير من كتاباته ، وخاصة في رسائله
إلى أمه ، المنشورة في دار جاليهار .

ولأن حياة الكاتب هي أعماله ، فيهمنا أن نذكر أن أندريه جيد مولود في
٢٢ من نوفمبر عام ١٨٦٥ في مدينة باريس الفرنسية ، وقد كان الأب بول
جيد مدرساً للقانون في كلية باريس ، أما أمه فهي جوليت رونورد ، ويقول
كلود مارتن في كتابه عن جيد ، الذي نستمد منه أغلب حديثنا هنا ، إن
أسرة الكاتب كانت تتمتع بثراء ملحوظ ؛ ولذا فقد تربى جيد بين الوزراء
ورجال الدين ، وأتاح له هذا الأمر أن يتلقى تعليماً راقياً ، ففي عام ١٨٧٧

دخل أندريه المدرسة الألزاسية ، وكانت المرة الأولى التي يبتعد فيها عن أسرته ، وفي المدرسة أصابته أزمة صحية حادة .

في عام ١٨٨٠ مات الأب ، وأصابت الأم حالة عصبية ، فانتقلت مع ابنها إلى « مونبليه » للإقامة مع العم بول جيد ، وهو أيضاً رجل قانون درس الاقتصاد السياسى ، ويموت الأب ، عاش جيد مع أسرته حياة مختلفة ، فالسكن الجديد ضيق وصغير ، وملىء بمظاهر الفقر ، وفي عام ١٨٨٢ توجه جيد لزيارة خالته ماتيلدا ، وهناك التقى لأول مرة بابنتها مادلين التي ستصبح ذات تأثير قوى في حياته ، والتي أصبحت شخصيته الرئيسية في رواية « اللا أخلاقي » ؛ ولذا سوف نخصص مساحة لا بأس بها للحديث عنها .

لقد ربطت الطفولة بينهما ، فهي فتاة رقيقة ، تبكى لأول وهلة ، وقد لعبت هذه الفتاة دوراً كبيراً في حياة الكاتب ، ففي عام ١٨٨٢ - وفي مدينة روان - قابلها في الشارع وهي تبكى . . « بدا لي أن حبي قد نما في هذه اللحظة ، واسترعت انتباهي بشكل حقيقى ابتداء من هذه اللحظة ، وبدأت أحس بوجودها » .

كانت مادلين تكبره بثلاث سنوات ، وتبدو أكثر عقلاً وحكمة ونُضجاً ، لم تكن تختلط بالشباب ، وكانت تبدو بالغة التواضع .

وربطت بين الاثنين صداقة قوية ، ثم جاءت فكرة الزواج فيما بعد ، وفي تلك السنوات غرق أندريه جيد في البحث عن الأدب ، وتوغل في أعماقه ، فاکتشف عبقرية الشاعر الألماني جوته ، وتعرف على مالارمييه وأوسكار وايلد ، أما الصدمة الكبرى للكاتب فكانت في عام ١٨٩٥ حين ماتت أمه ،

ووجد أن عليه أن يعرض هذا الحب الضائع بالزواج من مادلين ، ثم سافر الاثنان إلى كل من شمال إفريقيا وسويسرا وإيطاليا لقضاء شهر العسل ، وهي الفترة التي تدور فيها أحداث رواية « اللا أخلاقي » .

تجىء أهمية التأكيد على حياة الكاتب ، كما جاء على لسان الناقد الفرنسى « بنيامين كريميو » كما جاء فى مجلة الكاتب : « أول نظرة إلى أندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب ، قلق ، معقد ، يتركب من عدة شخصيات ، ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر ، ثم لا نلبث أن ندرك أن فنه صورة منه » .

نشر جيد كتابه الأول : « كراسات أندريه والتر » فى عام ١٨٩١ . وفى هذه الفترة كان « جيد » يعيش بعيداً عن باريس ، وراح يكتب العديد من الرسائل إلى أمه ، سكب فيها كل مشاعره نحو أمه ، فهى المخلوق الوحيد فى العالم الذى يستكين إليه . . ولم تكن « كراسات أندريه والتر » سوى إلهام من الأم التى دفعته للقراءة والتثقيف الذاتى ، ففى تلك الفترة كانت فرنسا مشدوهة بأفكار واردة إليها من ألمانيا وبريطانيا ، من ألمانيا جاءت فكرة « الإنسان الخارق » الذى صنعه « نيتشه » فى فلسفته ، ومن بريطانيا جاءت أفكار أوسكار وايلد الذى آمن بضرورة جمال الحياة ، وجمال الفن ، وأحس أندريه جيد أنه يلتقى مع وايلد فى إيمانه بأن على الفنان أن يعيش على هامش العادات الأخلاقية التى يتطلبها المجتمع من الناس .

وفى تلك السنوات عكف جيد على قراءة أعمال كل من دوستوفسكى ، و « موريس باريس » . واهتم بالتاريخ فى اليونان وروما ، وأتقن عدة لغات ، منها اللغة العربية ، ثم نشر أعماله التى منها « معاهدة نرجس » عام

١٨٩٢ ، ثم « رحلة أوريان » فى العام التالى ، و « الأغذبة الأرضية » عام ١٨٨٧ . ثم تتابعت أعماله مثل « اللا أخلاقى » عام ١٩٠٢ ، و « عودة الابن الضال » عام ١٩٠٧ ، و « الباب الضيق » عام ١٩٠٩ ، و « إيزابيل » عام ١٩١١ ، و « السيمفونية الرعوية » عام ١٩١٩ ، و « المزيفون » عام ١٩٢٦ وبعضها منشور باللغة العربية .

ويقول الدكتور نظمى لوقا فى مقدمته لرواية « السيمفونية الرعوية » : « إن قراءة دوستويفسكى وفرويد قد أكسبت « جيد » قدرة فى التحليل النفسى ، وتدعيماً للملكة النقد لديه ، فأعلن أن حقيقتنا تكمن فى تلك الغرائز التى تكبحها التربية وتكبتها فى أعماق أغوارنا ، فإن لم تجد متنفساً لها سممت منابع الحكم العقلى ، وهكذا تتحول الأخلاقيات الظاهرية إلى نفاق ورياء ؛ ولذا نادى بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية ، ولو أدى ذلك إلى الفضيحة ، ويعتقد أنه ربما ظهرت فى هذا الإطار الصريح شعلة العبقرية » .

« هو إذن ضد الانقياد للأخلاقيات الشائعة ، بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقياداً أعمى ، ولكنه مع هذا احتفظ فى تكوينه النفسى بتيار متدين ، وهذا هو السر فى معظم أعماله ، لاستشهاده فى كثير من المواضع بالإنجيل » .

وهذه الحرية التى يبيحها الكاتب لنفسه تدفعه دوماً أن يسيطر عليها من خلال شعوره الدينى العميق ؛ لذا جاء فى كتابه الأول « كراسات أندريه والتر » : « إننى كم أتمنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين من العمر - وهى السن التى تنطلق من عقالها الشهوات - أن أقمعها بالعمل المضنى اللذيذ » .

وفى الملف الذى أعدته مجلة « الكاتب » عن أندريه جيد تأكيد لهذا

الرأى ، حين رأى الكاتب أن « فكرة أندريه جيد عن التحرر المطلق لم تقضِ على عاطفته الدينية الدفينة ، بل لقد أحدث عنده هذا الإيثار القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا - نتيجة عكسية ، إذ جعله يترك العنان لإحساسه الدينى يطغى عليه بين وقت وآخر بدون أن يحاول كبته ، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف زاهد ، ففى روايته «الأغذية الأرضية» وهو الكتاب الذى ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية ، يقول : « إنك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله » وأيضاً : لا تأمل أن تجد سوى الله فى كل مكان » . وفى كتابه « الأغذية الجديدة » المنشور عام ١٩٣٥ ، يقول : « يجب أن نفكر فى الله بأقصى ما يمكن من الانتباه واليقظة . إننى عندما أهجر التفكير فى الخالق إلى التفكير فى المخلوق تنقطع صلة نفسى بالحياة الخالدة ، وتفقد حيازتها لمملكة الله » .

وترى « المجلة » أن فكرة جيد هى الفصل بين الناحية الجسدية الغريزية فى الإنسان والناحية المعنوية ، وهى إما الإحساس الدينى أو الإحساس بالشیطان فى الإنسان .

حصل أندريه جيد على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٤٧ . وتوفى فى عام ١٩٥١ ، بباريس .

أمّا عن شخصية ميشيل فى رواية « اللا أخلاقى » فهى نفسها أندريه جيد ، لم يحاول الكاتب أن يوارىها ، سواء فى علاقته بالحياة ، أو بالأشخاص ، أو الأماكن . لم يذكر ميشيل أى شىء عن أمه سوى أنها ماتت ، أما الأب فقد اختفى بعد سطور ، وذلك بعد أن طلب منه أن يتزوج مارسيلين «مادلين» . وفى هذه الرواية بدأ مدى شغف الكاتب بإفريقيا ، وهو ينقل

الأحداث من الجزائر التي عاش فيها ، إلى تونس ، ومدينة « سوسة » بشكل خاص . وقد كتب جيد في يومياته عن إفريقيا : « إننى أحب أن أكرر دوماً هذه الكلمة الغامضة ، إنها تحمل فى داخلها جاذبية غريبة ، .

ويقول الكاتب - كما جاء فى كتاب الناقد كلود مارتين عن أندريه جيد : « إننى فى إفريقيا أسمع ، وأرى ، وأتنفس ، مثلما لا أفعل فى أى مكان . وحينما تتسلل عطورها وألوانها وعبقها فى داخلى فإننى أحس بقلبي يفرح وينتحب من العرفان بالجميل .

« خذنى ، خذنى إلى داخل هذه الأرض ، كم أصبح وأنا أحس بضياؤها، يا له من ضياء خفيف ومشع ، ليس من المجدى أن أناضل ضدك اليوم ، فأنا اليوم أعرفك أفضل » .

三ノ



محمود قاسم

- من مواليد مدينة
الأسكندرية في ٩ من يوليو
١٩٤٩ .

- يكتب الرواية ، والفقه الأدبي والسينمائي ، وفي أدب الاطفال .
- حصل على جائزة المجلس الأعلى للثقافة في الفقه الأدبي عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٥ .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية في أدب الأطفال عامي ١٩٨٨
- حصل على نوط الامتياز من الدولة في عام ١٩٩٢ .

من كتبه :

في الرواية :

- لماذا دار المطبوعات الجديدة . إسكندرية - ١٩٨١
- أوريسانا دار المطبوعات الجديدة . إسكندرية - ١٩٨٢
- الثروة المجلس الأعلى للثقافة - ١٩٨٣
- البديل هيئة الكتاب - ١٩٨٧
- وقائع مستويات الصبا دار الاتحاد العربي - دمشق - ١٩٩٢

في الرواية المترجمة

- آلهة الذباب عن ويليام جولدنج دار الهلال - ١٩٨٤
- شحاذون ومعتزون عن البير قصيرى هيئة الكتاب - ١٩٨٧

- العاشق عن مرجريت دوماس هيئة الكتاب - ١٩٩١
- منزل الموت الأكيد عن البير قصيرى دار سعاد الصباح - ١٩٩٢
- العنف والسخرية عن البير قصيرى دار الهلال - ١٩٩٣

في الدراسات :

- الرواية اليهودية في الولايات المتحدة وفرنسا آفاق عربية - ١٩٨٦
- الاقتباس في السينما المصرية - طعة ثالثة نهضة مصر - ١٩٩٠
- رواية التجسس والصراع العربى الإسراء نهضة مصر - ١٩٩٠
- الخيال العلمى . أدب القرن العشرين الدار العربية للكتاب - ١٩٩٣
- الأدب العربى المكتوب بالفرنسية دار سعاد الصباح - ١٩٩٤

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "جائزة نوبل" في الآداب . هل فازوا ببر
عن جهارة ؟ وهل فازوا ببر لأسباب موضوعية ؟
هذه السلسلة "روايات جوائز نوبل" ..

تصدر للإجابة عن هذه التساؤلات فري لاكتفى بترجمة
أفضل روايات هؤلاء الكتاب وأشهرها ، ترجمة كاملة
وأمانة بلغة عربية رصينة وأسلوب بهرغني عصري ، ولكننا
لضمن الترجمة مقدمة تاريخية وافية عن الكاتب ، وتحليلية
دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه وروايته ، حتى
يجد القارئ والدارس والاديب الناشئ ، ما يسعد ويفيد
ويلبي حاجته الثقافية ..

من هذا المنطلق نريد من إعادة الفضل إلى أصحابه والاعتراف
باستجابة ناشرنا لموقف «محمد رشاد» لهذا المشروع الثقافي
عن مفاخراته الحادية في عالم النشر . والله موفق دائماً

فاتح العشري

الفنيون

الإشراف الفني : محمد طنطاوى

التصنيف : بثينة جمال

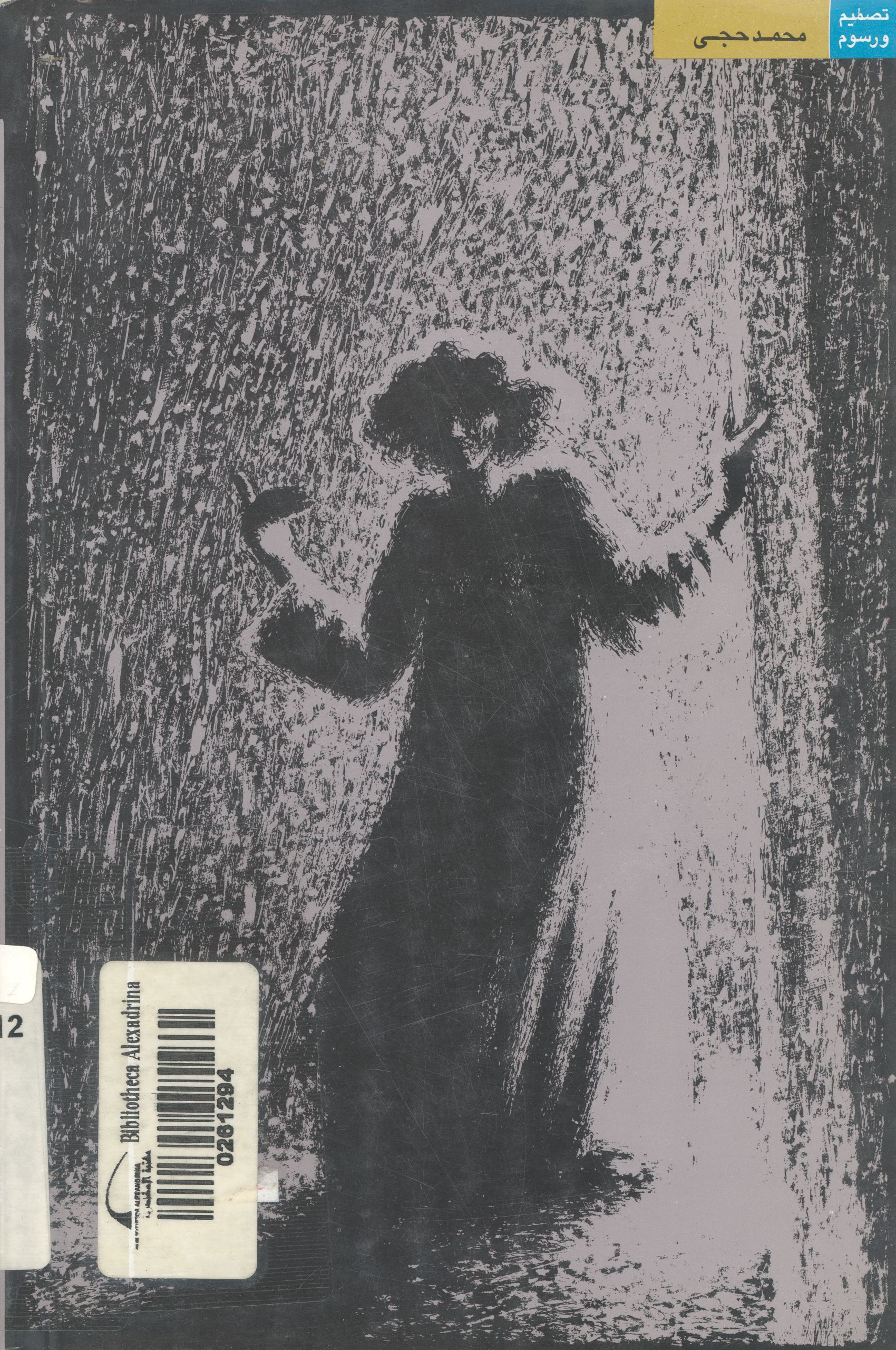
التصحيح : عبد الحكيم بيومي

مونتاج : جودة عبد الصادق

عربية للطباعة والنشر

٧ - ٢٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ - ٣٠٣٦٠٩٨



12

1

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية

0261294